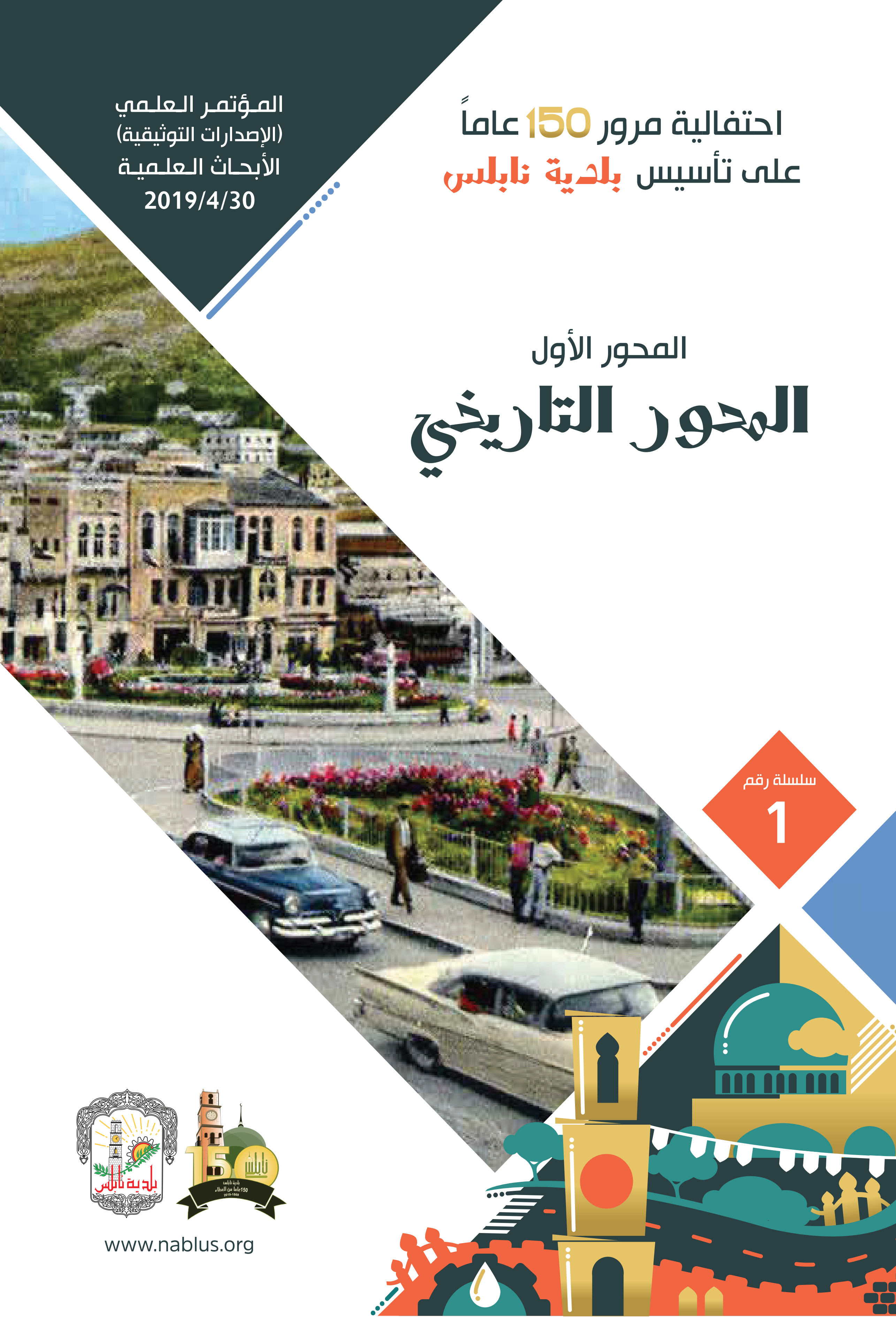


المؤتمر العلمي
(الإصدارات التوثيقية)
الأبحاث العلمية
2019/4/30

احتفالية مرور 150 عاماً
على تأسيس بلدية نابلس

المحور الأول

المحور التاريخي

سلسلة رقم
1

www.nablus.org

احتفالية مرور ١٥٠ عاماً على تأسيس بلدية نابلس

المؤتمر العلمي

(الإصدارات التوثيقية)

الأبحاث العلمية

٢٠١٩/٤/٣٠م

المحور الأول

(المحور التاريخي)

بلدية نابلس

نابلس/ فلسطين - نيسان ٢٠١٩م

هذا الكتاب التوثيقي جزء من احتفالية مرور ١٥٠ عاماً على تأسيس بلدية نابلس ويضم أعمال المؤتمر الذي نظمته بلدية نابلس في مدينة نابلس/ فلسطين في ٣٠ نيسان ٢٠١٩م بهذه المناسبة. وهي تحمل آراء ووجهات نظر عدة. وبالضرورة لا تعبر هذه الآراء عن آراء ووجهات نظر منظمي المؤتمر ورعاته ولجانه التحضيرية والعلمية والتحرير، بل بالتأكيد أنها تعبر عن آراء الباحثين المشاركين في المؤتمر.

أعضاء اللجنة التحضيرية لإصدارات مرور ١٥٠ عاماً على تأسيس بلدية نابلس

خالد زواوي/ "رئيساً	وزارة الأوقاف والشؤون الدينية
رجاء الطاهر/ مقرراً	بلدية نابلس
ضرار طوقان/ عضواً	بلدية نابلس، المكتبة العامة
زهير الدبعي/عضواً	وزارة الأوقاف والشؤون الدينية/ متقاعد
عدنان عودة/عضواً	مدير المركز الاجتماعي الخيري
أيمن الشكعة/عضواً	مركز تنمية موارد المجتمع
عماد كمال/عضواً	تجمع دواوين الديار النابلسية
غياث جازي/عضواً	محافظة نابلس

أعضاء اللجنة العلمية

لإصدارات مرور ١٥٠ عاماً على تأسيس بلدية نابلس

د. أمين أبو بكر "رئيساً"	جامعة النجاح الوطنية
د. جوني منصور	مؤرخ ومحاضر/ حيفا
د. سعيد البيشاوي	جامعة القدس المفتوحة
د. محمود يزبك	مؤرخ ومحاضر/ الناصرة
د. عبد الرحمن المغربي	جامعة القدس المفتوحة
د. زهراء زواوي	جامعة النجاح
د. شامخ علاونة	جامعة القدس المفتوحة
د. سميح حمودة	جامعة بيرزيت
د. أيمن يوسف	الجامعة العربية الأمريكية
د. خالد صافي	جامعة الأقصى

أعضاء لجنة التوثيق لإصدارات مرور ١٥٠ عاما على تأسيس بلدية نابلس

بشار التمام/ رئيسا	بلدية نابلس، المكتبة العامة
ماهر الحنبلي/عضواً	بلدية نابلس/ متقاعد
محمود بيراوي/ عضواً	وزارة السياحة والآثار
سليم الكعكاني/عضواً	بلدية نابلس/ متقاعد
عبد الرحمن شرف/عضواً	بلدية نابلس، الدائرة الهندسية
الأستاذ بشير شرف/عضواً	وزارة التربية والتعليم/ متقاعد
نصير عرفات/عضواً	اللجنة الأهلية
ماجد عبد اللّه/عضواً	بلدية نابلس/ متقاعد
السادة جمعية عيبال الخيرية/عضواً	
حسني المصري/ عضواً	جامعة النجاح
بلال بانا/ عضواً	وكالة وفا

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة سعادة المهندس عدلي يعيش

رئيس بلدية نابلس

في هذا العام ٢٠١٩م يمرُّ على تأسيس بلدية نابلس مئة وخمسون عاماً، فقد تأسس المجلس البلدي الأول في العام ١٨٦٩م في نهايات العهد العثماني، وتعتبر البلدية الثانية من الناحية التاريخية بعد بلدية مدينة القدس، وهذا يرجع لما للمدينة وقتها، في ظل الدولة العثمانية، من أهمية تاريخية واقتصادية واجتماعية وسياسية تم تأسيسها على مدار تاريخ طويل من قيادة، وحكم ما كان يعرف تاريخياً "بجبل نابلس" والذي يشمل ما يعرف الآن بالمحافظات الشمالية للضفة الغربية.

تاريخ هذه البلدية، كما تاريخ مدينتها لم يكتب حتى الآن بالشكل الذي يتناسب وأهميتها، ودورها التاريخي سياسياً، واجتماعياً واقتصادياً ، الأمر الذي دفعنا في بلدية نابلس لاتخاذ قرار بالعمل بشكل جدي لكتابة هذا التاريخ بالاستناد إلى الوثائق من مصادرها الأساسية لنصوغ تاريخاً دقيقاً مبنياً على أسس علمية صحيحة تعطي للبلدية حقها، وتبرز أدوارها على مدار المراحل التي قطعتها خلال مسيرتها التاريخية.

وانطلاقاً من أن ما كتب عن تاريخ البلدية ومدينتها لا يعدو عن كونه مقتطفات لمراحل تاريخية محددة، أو تناول لمواضيع تختص بالمدينة سياسية أو اقتصادية أو دينية، أو مشاهدات لرحالة وقناصل كانت في الأعمِّ الأغلب سلبية ومنحازة، وطبعاً لا يمكن إنكار ما كتب من كتب، وأبحاث تاريخية تناولت نابلس وبلديتها فالجهد المبذول فيها كبير، الامر الذي يحتِّم كتابة التاريخ الكامل والدقيق لهذه المدينة، وبلديتها.

ولذا، وفي مناسبة حلول هذه الذكرى في العام الجاري ٢٠١٩م عمد المجلس الحالي على تشكيل لجان وطواقم تبحث في وضع مخطط تفصيلي للاحتفال يتجاوز ما يتعارف عليه في مثل هذه المناسبات ، وأصبح يتعلق بتنفيذ مشروع متكامل وشامل يتناول الجوانب الاحتفالية الاعتيادية كما هو معروف، إضافة إلى رؤية جديدة تتعامل مع التاريخ النابلسي بجوانبه كافه سواء منه ما يتعلق بتأسيس البلدية،

ونشـاطاتها؛ خدماتيـاً، واجتماعيـاً واقتصادياً وسياسـياً، أو غيرهـا مـن الجوانـب التـي عملت المجالس البلدية المتلاحقة عليها خدمة للمواطن النابلسي أو خدمة للأهداف والـرؤى الوطنيـة العامـة، أو مـا عاصرهـا مـن عهـود سياسـية وهـي كثيـرة في الفتـرة الممتدة ما بـين ١٨٦٩م وحتـى ٢٠١٩م العـام الحالـي عـام الاحتفـال بهـذه الذكـرى.

وقد شكل المجلس البلدي عدداً من اللجان لإدارة هذه الاحتفالية بجوانبها كافة وهـي:

١. اللجنـة التحضيرية العليا لإدارة احتفاليـة ١٥٠ عـام علـى تأسـيس بلديـة نابلـس والتـي تتشـكل مـن عـدد مـن أعضـاء المجلس البلـدي وعـدد مـن مـدراء الدوائـر والأقسـام والمراكـز الثقافيـة.

٢. اللجنـة التحضيرية لإصدارات (١٥٠ عامـاً) علـى تأسـيس بلديـة نابلـس والتـي تتشـكل مـن عـدد مـن أبنـاء المدينـة الـذي يمتلكـون الخبـرة في إدارة هـذه الأمـر. وينبثـق عنهـا:

- اللجنـة العلميـة والتـي تتكـون مـن عـدد مـن الأكاديميـين في عـدد مـن التخصصـات ذات العلاقـة بطبيعـة الأبحـاث المطلوبـة كالتاريـخ، والهندسـة، والعلـوم السياسـية.
- لجنـة التوثيـق والتـي تتشـكل مـن عـدد مـن الشـخصيات النابلسـية الوازنـة والتـي تمتلـك مـن الخبـرة والتاريـخ مـا يؤهلهـا لتقـود هـذه اللجنـة وتديرهـا. وهـي تعنـى بتجميـع كل الوثائـق المتعلقـة بتاريـخ البلديـة والمدينـة سـواء في الفتـرة المذكـورة أو في الفتـرة التـي تسـبقها وتؤسـس لهـا.

كما قام المجلس البلدي باطلاق صفحة على موقع الفيس بوك تعني بالترويج لعدد من النشاطات والاجتماعات والأخبار التي تختص بالاحتفالية، بالإضافة إلى نشر صور لبعض الوثائق الهامة والتي تنير جوانب من تاريخ البلدية ونشاطاتها منذ التأسيس، وقد لاقى نشر هذه الوثائق اهتماما كبيراً من قبل المواطنين.

ويمكن تقسيم هذا المشروع إلى شقين؛ الاحتفالي وليس هنا مكانه، والتوثيقي وهو ما سيتم عرضه من خلال هذه الإصدارات التوثيقية وفق الآتي:

الجانب التوثيقي:

لربما كان لهذا الجانب الاهتمام الأكبر في الاحتفالية الحالية، لما له من أهمية كبيرة في حفظ وتوثيق تاريخ البلدية، الأمر الذي يعني توثيق ستة مراحل تاريخية رافقت الوجود التاريخي والحالي للبلدية، والمدينة بكونها الحاضن الطبيعي والسياسي والتاريخي لها، علماً أن هذا المشروع لن يتوقف عند انتهاء الاحتفالية هذا العام وإنما ستكون له استمرارية ترتبط ارتباطاً وثيقاً بانتهاء أهداف هذا المشروع الرامية إلى توثيق كل ما يتعلق بالمدينة وحفظه كوثائق أو أبحاث لتوضع أمام الباحثين والمهتمين الراغبين باستخراج الكنوز التي تكمن فيها.

وتم تقسيم هذا الجانب إلى مراحل عدة تتمثل في:

المرحلة الأولى:

جمع الوثائق المتعلقة بتاريخ مدينة نابلس والمجلس البلدي (وهي في هذه المرحلة تتعلق بالفترة الزمنية من ١٨٦٩-٢٠١٩، على أن يتم العمل على جمع ما يتعلق بالفترات السابقة في المراحل القادمة ليكون هناك تحصيل، وتجميع لجميع تاريخ المدينة وبلديتها في كافة المراحل) من مصادرها وتوفيرها للباحثين لتكون أبحاثهم مبنية عليها، واعتبار الكتب التاريخية التي تناولت المدينة والمجلس كمصادر ثانوية تأتي لتفسير أمر، أو تحديده دون اعتمادها كمصدر رئيسي، وهذه الوثائق موجودة في:

١. وثائق الأرشيف العثماني من العام ١٨٦٨م وحتى ١٩١٨ (تم إنجازه وحصلنا على (٦٠٣٩) وثيقة خاصة بالبلدية، والمدينة تتعلق بالفترة المذكورة من الأرشيف العثماني.

٢. وثائق الانتداب البريطاني ١٩١٨ وحتى ١٩٤٨ (وقدمنا طلباً للقنصل البريطاني لتوفيرها ولا زلنا نتواصل معه للحصول عليها)

٣. وثائق الحكم الأردني. ١٩٥٠ وحتى ١٩٦٧ (حصلنا على جزء منها ولا زلنا نتواصل للحصول على بقيتها)

٤. وثائق الأرشيف الإسرائيلي. ١٩٦٧ وحتى ١٩٩٤ (نحاول أن نجد مخرجاً لآلية الحصول عليها بشكل صحيح)

٥. وثائق العائلات النابلسية التي شارك أعضاء منها في رئاسة وعضوية المجلس البلدي طيلة الفترة المذكورة وحتى العام الحالي، أو مارست دوراً ما (سياسي، اقتصادي، اجتماعي، ثقافي....) خلال فترة الدراسة .

٦. وثائق العائلات الكبرى في المدينة، والتي كان لها دور فاعل في تاريخ المدينة وبلديتها طيلة الفترة الماضية (وهنا كان لنا تعاون مع تجمع دواوين عائلات الديار النابلسية للحديث مع العائلات ولازلنا نعمل على هذا الموضوع رغم صعوبته، خاصة في ظل تعامل بعض هذه العائلات مع وثائق أفراد عائلتها على مدار التاريخ المذكور كإرث عائلي خاص ولا يجب تعميمه).

٧. الاستفادة من ما كتب عن المدينة وبلديتها من كتب، أو رسائل أكاديمية باللغات كافة والحصول على نسخ منها إما أصلية أو مصورة أو حتى الكترونية لضمان وضعها في مكتبة بلدية نابلس الأمر الذي سيسهل على الباحثين في الوصول إلى ما كتب عن المدينة من مكان واحد.

٨. توثيق الصور التاريخية المتعلقة بمدينة نابلس ومدينتها سواء من المصادر العالمية أو المحلية (وقد تم الحصول على ما يقارب (٦٥٠٠ صورة) تشمل صوراً للمدينة أو لنشاطات البلدية).

المرحلة الثانية:

وهي مبنية على المرحلة الأولى، وتستند عليها من خلال تشكيل لجنة علمية من قبل أكاديميين مختصين أكفاء من جامعات الوطن للإشراف على لجنة الإصدارات العلمية التي تم تحديد محاورها عبر مراحل محددة تشمل المراحل التاريخية التي حكمت المدينة، وتم استكتاب عدد من الباحثين في الجامعات المختلفة من خلال مراسلة الجامعات نفسها أو من خلال استكتاب الباحث، وقد تناولت محاور النشرة الخاصة الآتي:

١. ما قبل تأسيس المجلس البلدي والتطورات السياسية والإدارية التي حدثت في جبل نابلس وأدت إلى تأسيس المجلس (ما بعد الحرب الأهلية، وانتهاء مرحلة شيوخ النواحي في العام ١٨٦٠، وانتهاء الحكم الداخلي لجبل نابلس، وابتداء مرحلة الحكام الخارجيين...)

٢. مرحلة تأسيس المجلس البلدي ١٨٦٨م وحتى ١٩١٧، العهد العثماني.

٣. مرحلة الانتداب البريطاني من العام ١٩١٧م وحتى ١٩٤٨.

٤. مرحلة الحكم العراقي من العام ١٩٤٨- ١٩٥٠م

٥. مرحلة الحكم الأردني ١٩٥٠ وحتى العام ١٩٦٧م.

٦. مرحلة الاحتلال الإسرائيلي ١٩٦٧ وحتى العام ١٩٩٤

٧. مرحلة السلطة الوطنية الفلسطينية. ١٩٩٤ حتى العام ٢٠١٩.

وتمحور البحث في هذه المراحل في النواحي الخدماتية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والوطنية والنضالية للمجالس البلدية المتعاقبة وبالتفصيل.

وهذه المرحلة الآن قد وصلت إلى نهايتها من خلال انتهاء كتابة الأبحاث التي شملت المحاور سالفة الذكر، وتم تحكيمها من قبل أعضاء اللجنة العلمية، وهي الآن بين أيديكم من خلال المجلدات التي أصدرت، في سلسلة من الإصدارات ستغطي المحاور كافة؛ بحيث يشمل كل كتاب محوراً من المحاور بأبحاثه وأوراقه العلمية.

هذه المجلدات التي تعتبر السلسة الأولى من هذه الإصدارات، لكوننا، وبناء على عظم هذا المشروع واتساعه، نحتاج إلى مزيد من الأبحاث والإصدارات إلى أن يكون هناك تغطية كاملة، أو قريبة من الكمال، للجوانب التي تتعلق بعمل البلدية ومجلسها منذ التأسيس وحتى الآن، وهو أمر نعي صعوبته، ومقدار الجهد اللازم لإنجازه، بما يحيط بهذه الفترة الطويلة تاريخياً، خاصة في ظل تعدد الجوانب التي عملت المجالس البلدية فيها سياسياً وخدماتياً، وثقافياً، واجتماعياً.

وقد أعطى المجلس البلدي قراره بالانعقاد الدائم للجنة العلمية ليتم إصدار بقية الأبحاث في إصدارات علمية تغطي الجوانب الأخرى التي لم يتم التطرق لها لقصر الوقت خلال الفترة القادمة.

إن دافعنا للاهتمام بتاريخ المدينة وبلديتها، إضافة لما ذكرناه أعلاه، يتعلق أيضاً برغبتنا الكبيرة والملحة لوضع هذا التاريخ العظيم بين يدي أبناء المدينة بهدف دفعهم جميعاً للعمل على إعادة تاريخ وأمجاد المدينة التي كانت قبلة علمية ووطنية وسياسية بارزة، وإن شئتم فاقرأوا تاريخها في القرن السابق (القرن العشرين) وحده لتروا عظم إنجازات رجالاتها في الترجمة والآداب والعلوم والسياسة، إضافة لدورهم الوطني في عقد المؤتمرات الوطنية والمشاركة في تأسيس الأحزاب التي كان لها الدور الكبير في العمل الوطني والسياسي، وهي فرصة لنا لإعادة التفكير في واقع هذه

المدينة وضرورة العمل بشكل حثيث لإرجاع دورها، طبعا دون بكاء على الأطلال، أو الاكتفاء بتذكر أمجاد زمن مضى.

إن معرفتنا بطبيعة مشروعنا هذا، وأهمية توحيد الجهود كافة؛ سواء في وضع المقترحات، أو المساعدة في التنفيذ وضعتنا أمام ضرورة الاستعانة بكافة مؤسساتنا الوطنية؛ رسمياً، وأهلياً، وهو الأمر الذي وضعناه موضع التنفيذ وكانت لنا عدة لقاءات خرجنا منها بالعديد من التوصيات التي كان لها أكبر الأثر في إنجاح عملنا ومشروعنا، فلهذه المؤسسات منا كل الشكر، كما نزجي شكراً للجان التحضيرية والعلمية والتوثيقية ولأبناء البلدية جميعاً والذين ساهموا معنا في إنجاح عملنا هذا.

كلمة اللجنة التحضيرية

خالد علي زواوي

رئيس اللجنة التحضيرية

الحمد لله .. والصلاة والسلام على رسول الله .. وبعد؛

بمناسبة الاحتفالية بمرور ١٥٠ عاماً على تأسيس بلدية نابلس كلف الحاج عدلي يعيش رئيس بلدية نابلس اللجنة التحضيرية للإصدارات التوثيقية بالعمل على تشكيل اللجان والبدء بعملية التوثيق التي تشمل ما يتعلق بتاريخ البلدية منذ تأسيسها في العام ١٨٦٩م وحتى العام ٢٠١٩م، مراعين الأسس المنهجية والعلمية في عملية التوثيق.

وبناء على هذا التكليف تم تشكيل لجنتين وقع على عاتقهما عبء العمل العلمي والتوثيقي الأولى هي (اللجنة العلمية) التي يرأسها الدكتور أمين أبو بكر وتضم في عضويتها عدداً من الأكاديميين والمؤرخين الهامين، وفي تخصصات مختلفة تتناسب وتنوع عمل بلدية نابلس. والثانية (لجنة التوثيق) التي وقع على عاتقها عبء العمل على حصر وحفظ وتصوير الوثائق والصور والخرائط والمخطوطات الخاصة بهذا التاريخ الذي يشمل عهوداً تاريخية ستة.

ونحن في اللجنة التحضيرية وبعد عمل قارب تسعة أشهر من عمل اللجنة العلمية، نضع بين أيديكم الجهد الأولي (السلسلة الأولى) من الأبحاث التي تنتظر إكمالاً في الفترات القادمة؛ فهذا المشروع مستمر ولن يكتمل إلا بالإحاطة بكل ما يتعلق بتاريخ البلدية ودورها الخدماتي والسياسي والوطني، الأمر الذي يقتضي متابعة مستمرة وجهداً لن يقف عند هذه الإصدارات.

إن العمل الموجود بين أيديكم، وقد حمل عنوان (احتفالية مرور ١٥٠ عاماً على تأسيس بلدية نابلس/ الإصدارات التوثيقية العلمية) ويضم بين دفتيه الأوراق العلمية، وأوراق العمل التي اختارتها لجنة المؤتمر العلمية من بين أوراق عمل وبحوث كثيرة قدمت للجنة العلمية. ويبلغ عدد هذه الأوراق اثنين وعشرين ورقة عمل وبحث رشحتهم لجنة المؤتمر العلمية للطباعة ضمن هذا المجلد توزعت على محاوره الخمسة التي غطت جوانب هامة تاريخية، وسياسية، وخدماتية، وعمرانية، إضافة

إلى خطط وأدوار تتعلق ببلدية نابلس وعملها طيلة العهود التاريخية التي حكمت نابلس وسيطرت عليها.

وبمناسبة نشر هذا العمل، تؤكد اللجنة التحضيرية بكل محبة على ما يلي:

لقد تم اختيار المناسب من البحوث العلمية وأوراق العمل المقدمة للمؤتمر وفق المعايير والضوابط التي وضعتها اللجنة العلمية لغايات النشر والعرض في المؤتمر.

إن الأوراق العلمية المنشورة في هذا الإصدار محكمة تحكيماً أكاديمياً وفق معايير وأسس البحث العلمي المعمول بها في الجامعات، وتم اختيارها وقبولها وفق أسس علمية تناسب عرض أعمال المؤتمر ونشرها بعد تحريرها.

البحوث المنشورة لا تعبر عن رأي بلدية نابلس أو سياستها، أو رأي أية لجنة من لجان المؤتمر سواء كانت لجنة احتفالية مرور ١٥٠ عاماً على تأسيس بلدية نابلس، أو اللجنة التحضيرية أو اللجنة العلمية، وإنما هي تعبير عن رأي كتابها.

بلدية نابلس، واللجنة العلمية والتحضيرية غير مسؤولين عن الإخلال بقواعد البحث العلمي وأخلاقياته، خاصة من حيث عدم النزاهة والأمانة في النقل والتوثيق، بل هي منشورة على ذمة أصحابها ومسؤوليتهم.

وختاماً، نغتنم فرصة هذا الإصدار الأولي من هذا العمل لنزجي شكرنا للجنة العلمية، ولجنة التوثيق و لكافة الباحثين الذين ساهموا في إنجاحه، داعين أشخاصهم قبل غيرهم أن يتقوا الله عند الإفادة من الأعمال المنشورة على الشبكة العنكبوتية، لتأصيل الإفادة عنها وفق ما يتوافق مع أسس ومنهج البحث العلمي الذي ساهم بصياغته أجدادنا وفق معطياتهم الحضارية. كما تغتنم فرصة شكرها الخاص لكافة المسؤولين الذين اضطلعوا بالمؤتمر وتشجيعهم لعمل اللجان ما استطاعوا، آملين في توفير الأجواء اللازمة للحرية الفكرية والعلمية؛ طمعاً بتقوى الله، وبتعزيز المصداقية وإشاعة الثقة.

والله من وراء القصد

المحور الأول
المحور التاريخي

نابلس

بين (دَورة القطن والأقمشة)

وبين (زَيتونها وصابونها)

طاهر المصري[1]

حسناً فعلت بلدية نابلس بمبادرتها بهذا المشروع الجليل؛ توثيق تاريخ نابلس وبلديتها في مئة وخمسين عاماً، أي منذ التأسيس العثماني لمجلسها البلدي الأول في العام ١٨٦٩م، في مطلع عهد التنظيمات الإداري العثماني، الذي فرضته ظروف سياسية دولية على الدولة العثمانية، بعد أقل من عقدين على انسحاب قوات محمد علي باشا حاكم مصر، بقيادة ابنه إبراهيم باشا في العام ١٨٤١م، من الديار الشامية، ومنها نابلس.

وهو مشروع، برأيي، ينبغي أن يبقى مفتوحاً على جهود الباحثين الشباب، وأن يكون هذان المجلدان نواة لهذا المشروع المتراكم الجهود، ذلك أنّ محاور المشروع قد يصعب أن تحيط بالمعارف المطلوب إنجازها لهذا العنوان الكبير؛ ذلك أن تاريخ المدينة وإدارتها لا ينفصلان عن تاريخ ريفها. تماماً، كما أنّ تاريخ المدينة وريفها لا ينفصلان عن تاريخ جبلها الممتد شرقاً حتى آخر حدود (البلقاء)، ولا عن جوارها الإقليمي، شمالاً وجنوباً، ولا عن صلاتها الدولية، تجارة وسياسة، وما رافقها من موجات غزو وخضّات اجتماعية كبرى، في فلسطين وجوارها.

وإذ أترك مهمّة البحث العلمي التفصيلي، المنتج لمعارف جديدة عن نابلس وريفها، لجيل الشباب المثابر والمهتم بتاريخ وطنه وناسه، فإنّني أتفهم رغبة البلدية الكريمة، في أن أكتب عن فترة العهد الأردني، في حكم فلسطين الوسطى وإدارتها، التي باتت تُعرف بالضفة الغربية، ومنها نابلس.

وسأكتفي، هنا، بالإشارة إلى عنوانين لافتين للبحث، وإعادة إنتاج معرفة علمية بتلك الفترة، وهما؛

- القوانين الأردنية التي شكّلت الإطار القانوني للحكم، والإدارة الأردنية لفلسطين الوسطى.

(١) رئيس مجلس الوزراء الأردني الأسبق

- ومقالة نادرة، لأحد أبناء نابلس، في مطلع تلك الفترة ١٩٤٩م، تعكس رؤية نخبة المدينة لمستقبل المنطقة وفلسطين آنذاك؛ وأقصد بذلك مقالة للمرحوم حكمت المصري.

أولاً: في إطار القوانين الأردنية، تجدر الإشارة إلى:

(قانون الإدارة العامة في فلسطين رقم ١٧ لسنة ١٩٤٩م)، وألفتُ إلى بعض ما جاء فيه: المادة١: يسمى هذا القانون (قانون الإدارة العامة في فلسطين) ويعمل به من تاريخ نشره في الجريدة الرسمية.

المادة ٢: تلغى وظائف الحكام العسكريين الأردنيين في فلسطين، ويتولى أعمال الإدارة فيها موظفون مدنيون.

المادة ٣: جميع سلطات المندوب السامي السابق التي كان يتولاها الحاكم العسكري العام في فلسطين تمارس بإرادات ملكية خاصة يعرضها الوزير المختص بموافقة رئيس الوزراء.

المادة ٥: جميع القوانين والانظمة التي كان معمولاً بها حتى انتهاء الانتداب على فلسطين تظل نافذة المفعول، إلى أن تُلغى أو تعدل.

وكذلك (قانون تعديل قانون الإدارة العامة في فلسطين وتعديلاته رقم ١٧ لسنة ١٩٤٩م)، والذي جاء فيه: المادة ٢: لجلالة الملك أن يمارس ويتمتع في فلسطين بجميع الصلاحيات التي كان يتمتع بها جلالة الملك ملك بريطانيا، ووزراؤه، والمندوب السامي في فلسطين بموجب مرسوم دستور فلسطين لسنة ١٩٢٢م وتعديلاته.

المادة ٣: لجلالة الملك أن يعين شخصاً أو أكثر لتولي أعباء الإدارة في فلسطين لمنصب الحاكم الإداري العام، أو بأي لقب آخر يفوض عليه، أو إليهم جميع أو بعض صلاحيات جلالته، وتنفيذاً لهذه الصلاحيات لجلالته أن يصدر إليه أو إليهم (من حين لآخر) التعليمات التي يراها ضرورية.

المادة ٥: جميع القوانين والأنظمة والأوامر الصادرة بموجبها، والتي كان معمولاً بها حتى انتهاء الانتداب على فلسطين، تبقى نافذة المفعول إلى أن تُلغى أو تعدل.

وكذلك (قانون ذيل قانون جوازات السفر رقم ١١ لسنة ١٩٤٩م)،والذي جاء فيه: المادة ٢: يصرف النظر عما جاء في المادة الثانية من قانون جوازات السفر

رقم-٥ لسنة ١٩٤٢م، يجوز لأي شخص عربي فلسطيني يحمل جنسية فلسطينية الاستحصال على جواز سفر أردني بموجب قانون جوازات السفر رقم-٥ لسنة ١٩٤٢م.

وكذلك (قانون إضافي لقانون الجنسية رقم ٥٦ لسنة ١٩٤٩م)، الذي جاء فيه؛ المادة ٢؛ جميع المقيمين عادة عند نفاذ هذا القانون في شرق الأردن أو في المنطقة الغربية التي تدار من قبل المملكة الأردنية الهاشمية ممن يحملون الجنسية الفلسطينية، يُعتبرون إنهم حازوا الجنسية الأردنية ويتمتعون بجميع ما للأردنيين من حقوق ويتحملون ما عليهم من واجبات.

مع ملاحظة أنّ كل تلك القوانين أقرّت، وأصبحت نافذة، قبل إعلان وحدة الضفتين قانونياً أو دستورياً.

ثانياً؛ مقالة حكمت المصري ١٩٤٩م؛

في فترة عصيبة من تاريخ فلسطين والأردن، وبعد توقيع اتفاقيات هدنة رودس بنحو ثلاثة أشهر فقط، وقبل إقرار وحدة الضفّتين في البرلمان الأردني رسميّاً، حيث كانت كلٌّ من الأردن، وما تبقّى من فلسطين خارجتين للتوّ من كارثة حرب العام ١٩٤٨م.

كتب حكمت المصري هذا المقال، الذي يقترح فيه تشكيل (مجلس اقتصادي أعلى)، لإنقاذ البلاد من أحوالها الكارثية، وهو مقال بالغ الأهميّة والدلالة، وتالياً نصّ المقال، من دون تعليق (نُشرَ المقال في مجلّة الصريح؛ نابلس؛ فلسطين؛ عدد ١٩؛ تاريخ ٢٦-٧-١٩٤٩م).

اقتصادنا القومي.....رأي واقتراح ١٩٤٩/٧/٢٦م

إنّ أيّ نظرة يلقيها الباحث الاقتصادي على القسم العربي من فلسطين، بعد الحوادث الجسام، التي مرّت على البلاد، خلال السنتين المنصرمتين، والتي قلَبت جميع الأوضاع فيها، وغيّرت من معالمها الشيء الكثير، يجعله يخرج بنتيجة واحدة لا ثانية لها، وهذه النتيجة تنذر بأوخم العواقب، وتُنبء عن مستقبل اقتصادي سيء أعظم من أن يصفه قلم، أو أن يدركه عقل.

فالقسم العربي من فلسطين، بعد أن جُرّد من أجود الأراضي، التي كان يملكها،

والتي كانت مزروعة بالأشجار الحمضية، والخضراوات، والحبوب، وغيرها، أصبح الآن لا يملك سوى أراضٍ وجبال محدودة الموارد والإنتاج، وأصبح الدخل القومي للفرد الواحد من هذه المنطقة لا يتجاوز العشرة جنيهات سنوياً، بينما كان في الماضي لا يقل عن خمسين جنيهاً في العام الواحد، بحسب تقديرات الحكومة السابقة في سنة ١٩٤٤م، وإذا قلنا عشرة جنيهات سنوياً للفرد الواحد، فإنّ هذا المبلغ لا يكفي لسدّ الرَمق.

والسكان الأصليّون، الذين يسكنون الضفة الغربية من الأردن الآن، والذين جُرِّدوا من أجود أراضيهم، كما ذكرنا آنفاً، أصبح يزاحمهم الكثيرون من اللاجئين، الذين نزحوا من المناطق الأخرى لكسب العيش (...).

أما الوضع الاقتصادي في الضفّة الشرقية من الأردن، فإنّه ينذر أيضاً بأسوأ العواقب نسبياً، لأنّ شرقي الأردن قد فقدت - نتيجة للأحداث التي وقعت في فلسطين - أكبر سوق تجاري لها، لتصريف بضائعها المستوردة وغير المستوردة، وكان هذا السوق أكبر عامل اقتصادي في التجارة فيها خلال العشرين سنة الماضية.

وكان لفلسطين، أيام الانتداب البريطاني، سياسة مالية، واقتصادية خاصة، تتلاءم ووضعها في ذلك الحين، أما الآن فإنّ هذه السياسة المالية، والاقتصادية قد أصبحت لا تتلاءم والوضع الحاضر في القسم العربي من فلسطين، وكذلك الحالة في الضفة الشرقية من الأردن، فإنّ السياسة المالية والإقتصادية المتبعة هناك الآن، والمنبثقة من سنين خلَت، قد أضحت غير متفقة مع الوضع الحاضر، خصوصاً بعد أن صارت الضفتان الغربية، والشرقية من الأردن تحت تاج واحد، وحكم واحد.

لذلك وجب على المسؤولين، في حكومة المملكة الأردنية الهاشمية، أن ينهجوا سياسة اقتصادية ومالية جديدة، تتلاءم ومقتضيات الوضع الراهن.

ومن أجل ذلك، ومن أجل معالجة الحالة الاقتصادية الخطيرة، التي تواجهها البلاد، والتي تسير من سيء إلى أسوء، فإنّي أتقدّم بالاقتراح من الحكومة في عمان أن تبادر في الحال - كخطوة أولى - بتشكيل "مجلس اقتصادي أعلى"، يضمُّ رجالات من ضفتيّ الأردن الغربية والشرقية، عُرفوا بالنزاهة والكفاءة، والتخصّص في التجارة، والزراعة، والاقتصاد، على أن يرأس هذا المجلس وزير المالية، أو وزير التجارة، ليرسموا لنا سياسة اقتصادية، ومالية على أساس الوضع الحاضر، حتى يستطيعوا أن يقيلوا البلاد من عثراتها المالية، ومن مستقبل مظلم ينتظرها، إذا لم نبادر بخلق

موارد جديدة للبلاد، بعد أن نضَبَ مَعين اقتصادياتها، وقلّ المُدّخَر من بين أيديها.

هنا، أسمح لنفسي بأن أضعَ إطاراً عاماً لتاريخ نابلس قبل تأسيس مجلسها البلدي الأول في العام ١٨٦٩م، ذلك أنّ إطاراً كهذا ربما يضع جهود الباحثين وأبحاثهم، حول المدينة وريفها، في السياق التاريخي الطبيعي الذي شهدته منطقة جبل نابلس والبلقاء، وما طرأ عليها من تحولات ومتغيرات.

نابلس؛ المدينة..

نابلس.. هي المدينة التي قال فيها شمس الدين الأنصاري (ت ٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م) أنّها: (قَصرٌ في حديقة..)، مستطرداً: «.. إنّ جوارَ نابلس المباشر رائعٌ، بكثرة شجره ووفرة نباته؛ وهو حقاً من أجمل بقاع فلسطين وأخصبها». وفعلاً، فإن كل من زار نابلس، بدءاً بالرحالة المسلمين في العصور الوسطى، وصولاً إلى الشبان الإنكليز الباحثين عن المغامرة في القرن التاسع عشر، وصف منظر المدينة بألفاظ تتشابه مع الأنصاري في إطرائه. ولمّا كانت مدينة نابلس القديمة تقع في واد ضيق وخصب، بين جبلين شديدي الانحدار، ويحيط بها حزام واسع من بساتين الزيتون وكروم العنب وحدائق الفاكهة وأشجار النخيل المتناثرة، فقد وُصفت، منذ أجيال، بأنها شبيهة بـ«قَصرٌ في حديقة»، وفق ما قاله الأنصاري.

فمدينة نابلس كانت خلال القرن الثامن عشر، ومعظم القرن التاسع عشر، هي المركز الرئيسي لتجارة فلسطين وصناعتها، كما كانت ركيزة لعشرات القرى القائمة وسط المنطقة الجبلية، الممتدة من الشمال إلى الجنوب، من الجليل إلى الخليل، والتي لم تزل موطناً لأكبر المستقرّات الفلاحية حجماً في فلسطين، وأثبتها استقراراً منذ أقدم العصور[٢].

وبما أنّ نابلس مركز لواء غنيّ، وكانت، منذ القدم، بوابة التجارة بين أنحاء البلاد الفلسطينية الشمالية والجنوبية، وكذلك بين يافا، وبيروت من جهة، وأقضية شرق الأردن من جهة أخرى، فقد أصبحت بحكم الضرورة سُوقاً لتجارة ناشطة، وهذا يستتبع أنّ أهلها تَمتّعوا بدرجة من رفاهية في العيش أعلى منها في أية مدينة أخرى في فلسطين[٣].

(٢) رستم، د. أسد؛ الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا-الأوراق السياسية للفترة (١٨٣١-١٨٤١)م؛ خمسة مجلّدات؛ منشورات الجامعة الأمريكية في بيروت؛ طبعة بيروت (١٩٣١-١٩٣٣)م؛ مج (٣ و٤) لسنة (١٢٥١-١٢٥٥)هـ/ (١٨٣٥-١٨٣٩)م؛ ص ١٧-١٨؛ ص ٢٣-٢٤؛ ص ٣٢؛ ص ١٠٥؛ ص ٢٥٧-٢٦٥. وسيشار له لاحقاً بـ(الأصول العربية؛ رستم مج (رقم)؛ ص ().دوماني ص؛ (٥٨، ٥٩). الأصول العربية؛ رستم، أسد؛

(٣) الأصول العربية؛ رستم مج (١) لسنة ١٢٤٧هـ/١٨٣٢م؛ ص (٤٦-٤٧)؛ (٧٩-٨١)؛ (١٣٤-١٣٦). دوماني ص؛ (٩)

دِمشقُ الصُغرى..

وقد قيل فيها أيضاً أنّها (دِمشقُ الصُغرى..). ذلك إنّ عبارةَ «دمشق الصغرى»، التي يتداولها سكان نابلس عادةً في الإشارة إليها، تُلخِّص مَنظر المدينة ومَخْبرها وجوهرها، فقد كانت أوجه الشبه بين المدينتين لافتة حقاً؛ إذ كلتاهما تنعم بالماء وتتوسّط الخضرة، وكلتاهما كانت من «الموانىء الجافّة»، الواقعة داخل سورية الكبرى، ولكلتيهما قطاع صناعي قوي، كما قامت كلٌّ منهما بدور المحور التجاري لعدد كثير من القرى المحيطة، وأخيراً، ففي كلتيهما كانت جماعات التجّار، المحافظة والراسخة الجذور، تهيمن على الحياة الثقافية، كما اتّسمت كلتاهما باستمرار السياسات العائلية.

وبالطبع، اختلفت نابلس عن دمشق في بعض النواحي المهمّة. فخلافاً للتنوع الديني والإثني لدى سكان دمشق، كان أهالي نابلس، كأهالي الخليل، متجانسين، إذ إنّه باستثناء الطائفتين الصغيرتين من المسيحيين والسَمرة، اللتين لم يتجاوز عدد أفرادهما معاً بضع مئات من الأشخاص، فإنّ السكان كانوا كلّهم من المسلمين السُنَّة، حيث كان المسيحيون يشكّلون كبرى الأقليات، وكانوا في معظمهم حرفيين وتجاراً، وكانت أكثريتهم من الروم الأورثوذكس، أمّا الباقون، فقد تحوّلوا إلى البروتستانتية في أواسط القرن التاسع عشر تقريباً، بفعل الأنشطة الإنجيلية، التي قام بها القس بوين، من جمعية الكنيسة التبشيرية. إذ فتح مدرسة نهارية، وأطلق عدداً من المشاريع الأخرى، كشراء نُولٍ حديث، ومعصرة زيت حديدية[٤].

وخلافاً لدمشق، أيضاً، لم تكن نابلس حاضرة كبرى، ولا عاصمة إدارية لولاية، فطبيعة أرضها الجبلية الصعبة، وموقعها الجغرافي ساعدا في الحفاظ على استقلاليتها المحلية، وحمايتها من الجيوش الامبراطورية، لكن على حسابٍ جعلها غير مؤاتية للتجارة الدولية، ومع ذلك، فإنّ التجارة الإقليمية، الداخلية منها والخارجية، لم تزل عبر التاريخ أهم كثيراً بالنسبة إلى الاقتصاد الفلسطيني، حيث كانت نابلس في موقع مثالي لكلتي التجارتين. فالوادي الضيّق، الذي يشقُّ المرتفعات الوسطى، ويصل الصحراء بالسهول العربية الخصبة، كان معبراً طبيعياً للبضائع، المُتّجهة إلى الجهات الأربع، وكانت زرافات من تجّار نابلس تسافر بانتظام إلى المدن المجاورة، كحيفا، ويافا، وعكّا، وغزّة على الساحل، وإلى الجنوب اللبناني، والناصرة، وصفد، والقدس، والخليل من المناطق الجبلية، وإلى السلط، وجبل عجلون، وحوران إلى الشرق، والشمال الشرقي.

(٤) Reverend John Mills, Three Months Residence at. Nablus and an Account of the Modern Samaritans, ١٨٦٤.
دوماني ص؛ (٢٧)

أمّا بالنسبة إلى التجارة بين المناطق، فقد كانت القاهرة، ودمشق غاية رحلات تجّار نابلس الأكثر أهمية، وقد شملت هذه التجارة، في معظمها، بضائع الجملة لا الكماليات، وخلال الفترة العثمانية، كان نحو ثلاثة أرباع إنتاج نابلس من الصابون يُشحن إلى القاهرة برّاً، عن طريق غزّة وصحراء سيناء، وبحراً عبر ميناءي يافا، وغزّة. أمّا من مصر، وخصوصاً من القاهرة ودمياط، فقد استورد تجّار نابلس، فيما استوردوا، الأرزَّ والسكّر والتوابل، إضافة إلى الأقمشة الكتّانية والقطنية والصوفية، كما صدّروا إلى دمشق كثيراً من المنتوجات المتنوّعة، ولا سيّما القطن، والصابون، وزيت الزيتون، وأقمشة متوسطة النوعية. واستوردوا منها، أكثر ما استوردوا، الحريرَ، وأقمشةً من كل الأنواع، والنحاس، وبعض الكماليات.

لقد عمل موقع نابلس الجغرافي على تعزيز مزاياها، وذلك طوال فترة الحكم العثماني واستقراره النسبي، فضلاً عن تعزيز الحيّز السياسي الواسع الذي أوجد استقرار ذلك الحُكم، فمنذ أوائل القرن السادس عشر، استُكملت الشبكات، التي تصل نابلس بكل من دمشق والقاهرة، بإنشاء محطات تجارية آمنة، وكذلك في الحجاز، ومنطقة الخليج في الجنوب والشرق، فضلاً عن شبه جزيرة الأناضول، وجزر البحر الأبيض المتوسط في الشمال والغرب. كما طوّرت نابلس علاقات تجارية ثابتة مع حلب، والموصل، وبغداد(٥).

نابلس الجَبل؛ كَحيِّزٍ اجتماعي..

وجبل نابلس هو قلب سورية الجنوبية، يحدّه غرباً البحر الأبيض المتوسط، من نهر العوجا إلى قُرى بَني ماضي (آل ماضي؛ هم شيوخ قضاء حيفا، ومركزهم إجزم)، أي قضاء حيفا جوار قيسارية، ومن الشمال، قضاء حيفا إلى قفزة الناصرة، وآخر حدود سهول بيسان الشمالية، ومن الجنوب، نهر العوجا (ووراءه قضاء يافا، والرملة) إلى طفّ سَلفيت (مغارة تشبه غصن الزيتون تتجه نحو جبال القدس)، حيث تبدأ جبال القدس، ثمّ يمرّ بحدود مزارع النوباني مُشرِّقاً إلى الغور، حيث تنتهي حدود أريحا، أما الحدود الشرقية، فتارةً نهر الأردن، وتارةً أخرى تجتاز الأردن إلى ما وراء حدود مقاطعة عمّان، شاملة البلقاء جنوباً إلى الكرك، وشاملة عجلون شمالاً إلى حوران(٦).

(٥) دوماني، بشارة؛ ترجمة زينة، حسني؛ (إعادة اكتشاف فلسطين – أهل جبل نابلس ١٧٠٠–١٩٠٠)؛ مؤسسة الدراسات الفلسطينية؛ بيروت؛ ط١؛ ١٩٩٨؛ ص؛ (٣٢). وسيشار له لاحقاً بـ(دوماني).

(٦) دوماني ص؛ (٣٥)

كان مدى الاستقلالية المحلية في فلسطين يختلف من منطقة إلى أخرى، فقد اكتسب جبل نابلس، بُعَيْد بدء الحكم العثماني، شهرةً كونه أشدّ المناطق صعوبة في السيطرة عليه. ولا يحتاج المرء إلى أكثر من المقارنة، بين ردّات الفعل المتباينة على الفرمانات السلطانية المطالبة بالمَدد، واستجابة للمطالبة بإرسال الرجال (كان الفرمان الأول، المؤرخ في ٢١ كانون الأول/ ديسمبر ١٧٩٨م، قد ادعى أنّ «عدد الرجال والأبطال في جبال نابلس والقدس ونواحيهما يقدّر بأن يكون مئة ألف مقاتل»، حيث تقاطر زعماء جبل القدس، وجبل الخليل إلى دار المحكة الشرعية في القدس، وتعهّد كل زعيم أمام القاضي بإيفاد عدد من المقاتلين، تحت طائلة دفع غرامة كبيرة إن هو أخلف العهد(٧).

لم تزل مدينة نابلس، منذ أن كانت بلدة كنعانية، متواشجة بريفها وشديدة الارتباط به، وعلى مرّ العصور، ولدّت التفاعلات المتشعّبة، والمتعددة الأبعاد، بين هذين الجزأين المترابطين عضوياً، والمتمايزين في الوقت نفسه، حيّزاً اجتماعياً متماسكاً ونابضاً بالحياة؛ جبل نابلس. ولقد كانت الشبكات الاقتصادية العميقة الجذور، بين المدينة، والقرى المحيطة بها، تشكّل الأسس المادية لاستقلالية جبل نابلس المحلية، كما كانت ديناميات العلاقات الاجتماعية، والسياسية بين المدينة والريف، لا سيما بين التجّار والفلاحين، مصدر الينابيع الثقافية لهويته. وكان هذا التضافر، بين المعاملات المادية، والثقافية، السبب في جعل جبل نابلس يبدو للناظرين إليه من الخارج كياناً قائماً بذاته، والأهم من ذلك، أنّه جعل أهله يشعرون بأنّه دارُهم، إذ بثَّ فيهم حسَّ الولاء الإقليمي له؛ وهذا ما أشار إليه جون ملِّز حين قال: إنّ «أهالي (نابلس) فخورون جداً بها، وهم يعتقدون أن لا مكان في العالم يساويها».

بهذا المعنى العام، كان جبل نابلس شبيهاً بجبال أخرى قائمة تحت مظلة الحكم العثماني، ويفسّر وجود هذه الفضاءات الاجتماعية (كَحيّزات اجتماعية مستقّلة نسبياً)، طوال قرون كثيرة، والعَصبيّات والهويات الإقليمية القوية، التي لا تزال تشكّل جزءاً مهماً من الثقافة الشعبية في سورية الكبرى، ويمكن للمرء، على سبيل المثال، أن يتحدّث عن: جبل لبنان وجبل عامل (المعروف أيضاً ببلاد بشارة)، فيما هو اليوم الجنوب اللبناني؛ جبل الدروز (حوران) في سورية اليوم؛ وجبل الخليل وجبل القدس، اللذين كانت الخليل والقدس، على الترتيب، مركزيهما المدينِيَّين(٨).

(٧) النمر، إحسان؛ تاريخ جبل نابلس والبلقاء- ج١؛ ط دمشق ١٩٣٨م؛ ص؛ ٣٤، ٨١، ٨٢. مع التحفّظ الشَديد على الكتاب وبنيته، وعصبيته، واعتماده كلّياً على الرواية الشفوية. وسيشار له لاحقاً بـ(جبل نابلس؛ النمر؛ ص ()).

(٨) دوماني ص؛ (٢٩)

نابلس؛ الريف..

إنّ مساحة فلسطين الصغيرة، وتنوّع تضاريسها الجغرافية المُذهل، والاعتماد على الزراعة البَعلية، هي عوامل أدّى تضافرها إلى الحؤول دون الزراعة الواسعة النطاق، ودون تطوير اقتصاد أحادي المحصول. وقد طوّر الفلاحون، ونسبتهم نحو ٨٠٪ تقريباً من مجموع السكان، مصادر متعدّدة للدخل، بابتكارهم سُبلاً متنوعة لاستخدام السمات الطوبوغرافية كافّة، فالحقول زُرِعت حبوباً، وبقولاً، وخضروات، والتلال سُوّيت مساطبَ، ومنبسَطات غُرست فيها الأشجار، والأراضي الصخرية العالية استُغلت للرعي، وحتى في العقود الأخيرة من الحكم العثماني، كان الفلاحون، في معظمهم، من صغار مالكي الأرض، المتمركزين في المناطق الجبلية الداخلية، حيث كانت البستنة، لا سيما العناية ببساتين الزيتون، طريقة العيش الأساسية لهم [٩].

كان فلّاحو المناطق الجبلية يعيشون في مجتمعات قروية وثيقة الوشائج والروابط، تراوح عدد سكانها بين بضع عشرات وبضع مئات، وكانت هذه المجتمعات تضمّ في معظمها ما بين حمولتين، وأربع حمائل، وبعضَ العائلات الممتدّة الكبيرة، وكان أساس التضامن الجماعي هو انتظام المجتمع الفلاحي في حمائل؛ وهي الجماعات ذات الأصل الأبوي الواحد، والتي يعود نسبها إلى الجد الخامس المشترك، وقد أتاح نظام الحمائل شبكة الأمان، التي أسعفت العائلات في أوقات الشدّة، والتي كانت ملائمة بصورة جيدة لتقلبات الزراعة البعلية، وفقر التربة، في المناطق الجبلية، وكان من مسؤولية الحمائل أيضاً حماية أفرادها في وقت الضيق، والتفاوض في شأن مصالحات، أو الثأر للأذى الجسدي، وكانت هذه الواجبات تقع على عاتق كبار السن في الحمولة، ينظّمونها ويديرونها، وكانوا يَفضُّون النزاعات الداخلية بناء على معايير، تتجسّد في ممارسات غير مكتوبة، عميقة الجذور، تسمّى العُرف، تُعيِّن الحقوق والواجبات، وتحدِّد آليات حلّ الخلافات، والتعويض والعقاب[١٠].

وقد كانت مجموعة المعايير هذه تختلف اختلافاً بيّناً عن تطبيق الشريعة الإسلامية، السائدة في المراكز المدنية، كما كانت تُعبِّر عن "قَبَلِيّة" المجتمع الفلاحي، من حيث أنّ العُرف كان يَستمدُّ الكثير من أحكامه من مفاهيم صيغت أصلاً في المجتمعات البدوية، ففي هذا المجال، إذاً، كان المجتمع الفلاحي يمتلك ثقافته الداخلية الخاصة، واستقلاليته القانونية المحلّية. ونتيجة لذلك، فإنّ الفلاحين نادراً ما كانوا يذهبون،

(٩) دوماني ص؛ (٣٢)

(١٠) دوماني ص؛ (٣٩، ٤٠)

قبل أواسط القرن التاسع عشر، إلى المحاكم الشرعية، القائمة في المدن، لفضّ خلافاتهم، أو لإقامة الشراكات، أو لشراء الأملاك، أو للتعاقد على قروض، أو لإجراء جملة من المعاملات المتعلقة بالأحوال الشخصية، كالزواج والطلاق وحصر الإرث [١١].

في التاريخ الاقتصادي لنابلس وريفها وجبلها

الأقمشة؛ القطن؛ الصابون..

فضلاً عن الزراعة البعلية الثابتة، فإنّ ثلاث مراحل قد عَبَرها التاريخ الاقتصادي لجبل نابلس ومدينته وريفه، هي؛ تجارة الأقمشة، وتجارة القطن، وصناعة زيت الزيتون، والصابون، طوال الفترة العثمانية (١٥١٦ــــ١٩١٨م)، وفترة الانتداب البريطاني (١٩١٨ــــ ١٩٤٨م). وفيها، وعبر خضّات سياسية وعسكرية عنيفة، تشكّل التاريخ الاجتماعي لجبل نابلس ومدينته وريفه، مرّات ومرّات، عبر انخراط انتاجه في شبكات التجارة المحلية، والإقليمية، والدولية.

شبكات التجارة الإقليمية..

ففي الفترة العثمانية، حَوَت متاجر خان التجار في نابلس أنواعاً من الأقمشة من مختلف مناطق العالم، وكان تجار الأقمشة من الهند، وبغداد، والموصل، وحلب وغيرها يزورون نابلس بانتظام، غير أنّ هذه الاتصالات المباشرة كانت هامشية؛ ذلك بأنّه لم يكن لنابلس، في بداية الفترة العثمانية، ذلك الحجم، ولا الموقع، اللذان من شأنهما أن يسمحا بالحديث عن أنماط تجارة دولية، بل إنّ التجارة الإقليمية، داخل الامبراطورية العثمانية، الممتدّة من شبه الجزيرة العربية إلى الأناضول، ومن العراق إلى مصر، هي التجارة التي كان يألفها التجار النابلسيون أكثر من سواها. وحتى في هذه الحال، فإنّ معظم الصلات التجارية الإقليمية كان يتركّز حول المدينتين، اللتين كانت دوائر نفوذهما تغطي سائر فلسطين، وهما القاهرة ودمشق.

وحتى النصف الأول من القرن التاسع عشر، كانت القاهرة وسواها من المدن المصرية هي المصدر الرئيسي للأقمشة، بالنسبة إلى التجار النابلسيين، أمّا في أواخر ذلك القرن، فقد أصبحت بيروت ودمشق تحتلّان مركز الصدارة، وقد حمل هذا التبدّل المكاني معه جملة من التغييرات، في طرق تنظيم شبكات تجارة الأقمشة الإقليمية [١٢].

---

(١١) شولش، ألكزاندر؛ ترجمة العسلي، د. كامل؛ تحولات جذرية في فلسطين (١٨٥٦-١٨٨٢)م؛ ص (٢١٨-٢٢٢)؛ ص (٩٣-١٣٣). دوماني ص؛ (٣٩، ٤٠).

(١٢) المحفوظات الملكية؛ رستم، أسد، مج (٢)؛ ص ٤٠٧؛ ص ٤٢٣-٤٢٩؛ ص ٤٤١. دوماني ص؛ (٨٧)

نابلس.. وشبكات التجارة المحلية وثقافتها

تاريخيّاً، تُوصفُ علاقة مدينة نابلس بريفها وكأنّها مثل ملكة النحل، فقد كانت المدينة تحتاج إلى فائض الفلاحين في ريفها كَي تبقى على قيد الحياة، وأنّها كثيراً ما كانت تعتمد على ميليشيا الفلاحين، لصون استقلاليتها المحلية النسبية، حيال القوى الإقليمية والدولة العثمانية، وفي المقابل، كانت مدينة نابلس تتيح للفلاحين السلع، التي ما كان في وسعهم إنتاجها، والخدمات التي كانوا يطلبونها، إضافة إلى مجموعة من نقاط الانطلاق السياسية، والثقافية إلى العالم العثماني الأوسع، ولهذا، فقد استحوذت أنشطة التجارة والصناعة المحلية على طاقات السواد الأعظم من النابلسيين، كما أنّ الكثير مما كانت تمثّله هذه المدينة في نظر أهلها، بالنسبة إلى الحياة اليومية، كان يتأثّر في تشكّله بمجموعة أساسية من العلاقات التي تربطها بالأرياف المحيطة.

ولّما كانت المصنوعات النسيجية هي السلع الأوسع انتشاراً في التجارة المحلية، فإنّ تفحّص التفاعلات الداخلية لهذه الشبكات، وكيفية تبدّلها مع مرور الزمن، يكشف تاريخاً اجتماعياً للأدوار الديناميكية، التي قام بها التجار والفلاحون معاً، في إعادة ابتداع الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية لجبل نابلس باستمرار[١٣].

لم ينفرد التجار بتقسيم الريف إلى حصص من السوق، بالمعنى الحديث لتقسيم العمل، بل كان جبل نابلس مشتبكاً في عشرات الشبكات الاجتماعية المتداخلة، الرسمية منها وغير الرسمية، ومنها؛ الشبكات السياسية للعائلات المدنية الحاكمة، ولشيوخ النواحي الريفيين؛ والشبكات المالية لضباط السباهية (أو صباهية؛ ومفردها سباهي، نسبة إلى سباه جند، وهم جنود فرسان عثمانيون على درجات، كانوا يقيمون في الديالات (المزارع) في الأراضي التي فتحوها، بصفتهم فاتحين، وكانوا يعفون من كل التكاليف مقابل الدفاع عن أهل تلك المناطق) وملتزمي الضرائب؛ والشبكات الدينية لمشايخ الصوفية، ومن دون أيّ تنافر بين هذه الشبكات، بعضها مع البعض الآخر، حيث كان التفاعل فيما بينها، في المجالات المشتركة، يشكّل المشهد السياسي والثقافي والاجتماعي العام، ويحدّد إيقاعات الحياة اليومية وديناميكياتها، وكان أثر أي تبدّل رئيسي، في حدود هذه المجالات المشتركة، ينعكس على كامل التشكيل الاجتماعي لجبل نابلس، فيعيد تنظيم التحالفات وأنماط السلطة والتجارة، تماماً كما حدث من اختلالات جراء الاحتلال المصري في العام ١٨٣١م.

(١٣) دوماني ص؛ (٩٦). مخطوطة رقم (٥)/ القدس/ ١٣٢٥هـ/ ١٩٠٧م. المحفوظات الملكية؛ رستم مج (٣)؛ ص ٢٤.

أمّا الشبكات التجارية، فكانت من النوع غير الرسمي، فهي لم تستلزم موافقة رسمية، ولم تستند إلى السلطة القسرية للدولة، بل كان التجار والعائلات السياسية السائدة يتعاونون تعاوناً متزايداً، خلال القرن التاسع عشر، في شؤون؛ أمن المواصلات والطرق؛ تنفيذ العقود؛ واستيفاء الديون، ولذلك، فقد أقرض تجار الأقمشة النابلسيون الزعماء السياسيين الأموال، وأتاحوا أمامهم فرص التجارة، من أجل صون شبكاتهم وإعادة إنتاجها، وفي الوقت نفسه، استخدموا تشكيلة واسعة من الأساليب الاقتصادية وغيرها، لتوطيد الوشائج الحميمة بزبائنهم من الفلاحين.

ولم تكن هذه الممارسات حكراً على جبل نابلس، فالشبكات التجارية، المعتمدة على الروابط الشخصية والولاء، كانت النموذج في المجتمعات التي تمتاز بحياة اقتصادية نشيطة، ضمن إطار بنى سياسية لامركزية، وكانت السبيل الأكثر فاعليّة للحفاظ على الحركة والتبادل، عبر الزمان والمكان، في بيئة كهذه، حيث يمرُّ فيها العمل من خلال مستويات متعددة من التعامل والممارسات القائمة على مسلّمات شائعة القبول، وعلى المسؤولية المتبادلة بين كلّ أطراف ومستويات العمل. ومعنى ذلك أنّ الفلاحين، كأحد أطراف العمل ومستوياته، لم يكونوا مغلوبين على أمرهم، وأنّ قراهم لم تكن مقسمة ببساطة إلى مجالات نفوذ، بل ربّما كان العكس هو الأقرب إلى الواقع، فقد شارك الفلاحون مشاركة نشطة في عملية تكوين الشبكات، وكان لهم خيارات وبدائل، بالنسبة إلى مَن يريدون التعامل معه من التجار، كما كان لهم أدواتهم في المساومة، كعدم تأدية المستحقات أو الانتقال إلى موضع آخر.

اقتصادياً، كانت الحلقة الرئيسية الواصلة بين التجار والفلاحين هي إتاحة خدمات التسليف، علماً بأنّ تسديد الدَيْن كان يؤجل عادة إلى موسم الحصاد، يضاف إلى ذلك أن متجر كل تاجر كان يعمل عمل مصرف بسيط أو متواضع، فقد كان في وسع الفلاحين أن يفتحوا حساباً بإيداع السلع والأموال، وأن يسحبوا منه، و/أو أن يستلفوا في زيارات لاحقة، أمّا ثقافياً، فقد كان هناك أهمية كبيرة لثقافة وقيمة (الدَيْن والأمانة وحسن السمعة)، كجوهر لمعنى كلمة (تاجر)، أمّا اجتماعياً، فقد عزّز التجار شبكاتهم التجارية، بأن قاموا بدور (مفتاح المدينة)، بالنسبة إلى الفلاحين. فتجار الأقمشة كانوا أكثر كثيراً من مجرد باعة بضائع بالدَيْن لمواليهم من الزبائن الريفيين، إذ كانوا وسطاء، أتاحوا مجموعة واسعة من الخدمات والمعارف الإجتماعية، كما كانوا يزورون الفلاحين في قراهم، ويحضرون أعراسهم، ويتبادلون معهم المجاملات والهدايا. كما كانوا يقدّمون الطعام والمأوى، لزبائنهم من الفلاحين

الذين يزورون المدينة، ولذلك لم يكن في نابلس نزل للفلاحين، كما كانوا يتوسّطون لهم عند تجار آخرين، ويتيحون لزبائنهم الريفيين استخدام مخازنهم كمقار للتسوّق.

ومجمل القول هنا؛ أنّ تجار نابلس ربطوا الثقافة والتعامل الاجتماعي والتبادل الاقتصادي بعضها ببعض، لتكوين عُرى وخيوط متينة وباقية ومَرنة، شملت مختلف أنحاء جبل نابلس مع أهاليه في تشكيل اجتماعي ونسيج واحد، ولعلّ أعراس الفلاحين هي خير شاهد على ذلك، ذلك لأنّ شراء الأقمشة، الملازم لهذا التقليد الاجتماعي، كان العمود الفقري لتعامل تاجر الأقمشة مع أهل الريف [١٤].

لم تتغيّر تلك التقاليد إلا بالتغيّرات التي حدثت في شبكات التجارة الإقليمية، لا سيما بين تجار نابلس ومنافسيهم الأوروبيين والساحليين، إذ تحوّل محور هذه الشبكات، إجمالاً، من مصر إلى دمشق وبيروت، أي من مشاريع متعدّدة العائلات إلى مشاريع أحادية العائلة، ومن أنظمة تسليف واستيفاء، تتوسّط فيها العائلات السياسية، إلى أنظمة أخرى يفرضها القانون، ومن مصادر إقليمية لاستيراد الأقمشة إلى مصادر أوروبية بصورة متزايدة، ومن نظام الوكلاء إلى الحسابات الفردية المفتوحة في شركات التجارة الإقليمية. وبمعنى آخر، فإنّ شبكات التجارة الإقليمية فقدت الكثير من استقلاليتها، مع إخضاعها للاقتصادين الإقليمي والعالمي، أو بصورة أدق، مع اندماج تجار نابلس في تلك الشبكات.

وفي هذا الإطار، يتبين أنّ استمرارية وتعزيز منظومة القيم والمعاني، المرتبطة بشبكات التجارة المحلية، كانا لا يقدّران بثمن، ذلك بأنّ عوامل مثل التماهي بالهوية الإقليمية، والمكانة الدينية والاجتماعية، وتنمية الصلات المحلية، من خلال تبادل الخدمات والهدايا، كانت من الضرورات للحفاظ على مدخل تجار الأقمشة النابلسيين إلى فائض الريف، في مواجهة القوى التي أطلقتها سياسات المركزة العثمانية، وعملية الاندماج في الاقتصاد العالمي، وقد عبّر ذلك التنافس عن نفسه بما انعكس على الحياة الاجتماعية، في الانتقال إلى تجارة القطن، وتبدّل السياسات التجارية المرافقة لها، لا سيّما التوتّرات المتولّدة من التنافس بين التجار المحليين والإقليميين والأوروبيين، ومع الدولة العثمانية أيضاً، في شأن حركة السلع [١٥].

(١٤) المحفوظات الملكية؛ دوماني ص؛ (٩٨، ٩٩). رستم مج (٤)؛ ص ٣٢٦- ٣٣١؛ ص ٣٣٣.

(١٥) شولش، ألكزاندر؛ ترجمة العسلي، د. كامل؛ تحولات جذرية في فلسطين (١٨٥٦___١٨٨٢)م؛ ص (٢١٨-٢٢٢)؛ ص (٢٤٦-٢٧٠). دوماني ص؛ (١٠٠/١٠١/١٠٢)

شكّل تجار الأقمشة النابلسيون التحدّي الأكبر في وجه ظاهر العمر (١٦٨٩م-١٧٧٥م) وخلفائه في عكا، لأنّه كان في إمكانهم أن يُفلحوا في الحدّ من توسع سياسة الاحتكار، فقد استعملوا شبكاتهم لجعل نابلس مركز تصنيع وتسويق القطن في فلسطين، مع أنّ القرى المنتجة للقطن كانت أقرب إلى المدن الساحلية، التي كان القطن يشحن منها إلى ما وراء البحار، ومع ذلك، فإنّهم عندما نجحوا، في السيطرة على تجارة القطن، واجهوا تحدياً آخر أشدّ خطراً، هو بروز سياسة "التجارة الحرّة". حيث تنافس تجار الأقمشة النابلسيون فيما بينهم، ونافسوا التجار الساحليين والأجانب، إضافة إلى الحكومة العثمانية، من أجل الوصول إلى فائض الريف والتحكّم فيه، وقد جرى هذا التنافس في إطار بيئة سياسية جديدة، أوجدها الغزو المصري، والإصلاحات العثمانية التي تلته.

القطن وسياسة الاحتكار..

إنّ قصة الإنتاج التجاري للقطن في فلسطين ليست جديدة، لأن هذه السلعة كانت قد وَجدت طريقها إلى سواحل أوروبا منذ القرن العاشر الميلادي على الأقل، وإنّ كانت مصر هي السوق الرئيسية منذ ذلك العصر، وظلّت كذلك حتى القرن الثامن عشر، فبين القرنين العاشر والثالث عشر الميلاديين، شكّل القطن المُصنّع معظم الصادرات، أمّا في أوائل القرن الخامس عشر، فكانت البندقية، التي هيمنت على التجارة مع سورية الكبرى، تستورد، أكثر ما تستورد القطن الخام، وتصدّر السلع القطنية المُصنّعة[١٦].

نابلس والقطن.. وحكّام عكّا

في عشرينيات القرن الثامن عشر، عَمد التجار الفرنسيون إلى توظيف الأموال، في إنتاج القطن على المستوى المحلي، من أجل ضمان حاجاتهم من القطن الخام. وقد دفعوا لشيوخ القرى ثمن محصول القطن مقدماً لسنة، أسوة بالتجار المحليين، غير أنّ مدخل التجار الأوروبيين المباشر إلى القطن الفلسطيني انقطع بعد عقدين من الزمان، يوم جعل ظاهر العمر مدينة عكا مقرّاً لحكمه، في أواسط الأربعينيات من القرن الثامن عشر، وأفلح، بمؤازرة إبراهيم الصبّاغ، مدير أعماله المالية ومستشاره السياسي، في أن يُحلّ نفسه وسيطاً بين التجار الفرنسيين وتلك القرى، التي تزرع القطن، المنتشرة بين القرى الخاضعة له، وكانت فكرته أن يحصر الفائض، ويتحكّم

(١٦) دوماني ص: (١١٦)

في الأسعار عند نقطة البيع للتجار الأجانب، وقد مكّنت أرباح هذا الاحتكار غير المحكم ظاهرَ العمر من تحويل عكا إلى مدينة حصينة، ومركزاً لجيشٍ مستقلٍ داخل الامبراطورية العثمانية، بعد أن كانت مجرد بلدة صغيرة.

وفي العام ١٧٨٤م، أي بعد تسعة أعوام من وفاة ظاهر العمر، استطاع خليفته، أحمد باشا الجزار (١٧٣٤م- ١٨٠٤م)، أن يفرض احتكاراً أشدّ صرامة على بيع القطن والحبوب وشرائهما، وفي العام ١٧٩٠م، أفلح الجزار في فكّ قبضة التجار الفرنسيين عن تجارة القطن، وطردهم إلى صيدا، وإذ تحكّم أحمد باشا، على نحو أفضل، بسوق القطن، فقد تمكّن من أن يجني أرباحاً أكثر، فكان في قدرته أن يوسع خياراته بين المشترين المحتملين، وأن يضع حداً لممارسة الالتفاف الفرنسية على جباة الضرائب التابعين له، وذلك من خلال الاستثمار المباشر على مستوى القرية[١٧].

إنتاج القطن في جبل نابلس..

لم تترسّخ أبداً سياسة الاحتكار في بقية أنحاء فلسطين، فقد زادت الأراضي المخصصة لزراعة القطن زيادة كبيرة، وانتشرت في مناطق لم تكن تخضع لسيطرة حكّام عكا، لا سيما جبل نابلس، وذلك لأنّ الموقع القوي، الذي كان لجماعة التجار في جبل نابلس، إضافة إلى البنية السياسية اللامركزية لهذه المنطقة، كانا يعنيان أنّ سياسة الاتجار بالقطن كانت تتسم بالتنافس، لا بالاحتكار.

فقد استطاع تجار الأقمشة النابلسيون أن يضمنوا لأنفسهم إمداداً منتظماً من القطن الخام، من خلال استعمال شبكات تجارتهم المحلية، التي كانت شبيهة بنسيج كثيف من الصلات بقرى وحمائل معينة، أو بأفراد معيّنين يسدّدون ديونهم عيناً، لا نقداً، في أغلب الأحيان. وفي الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، إن لم يكن قبل ذلك، كان جبل نابلس قد أصبح المنتج الأكبر للقطن، لا في فلسطين فحسب، بل في سورية الكبرى كلها أيضاً[١٨].

أُفولُ تجارة القطن الخارجية..

لقد تراجع إنتاج القطن تراجعاً كبيراً، عندما بدأ اندماج فلسطين في الاقتصاد العالمي، وأخذ استيلاء النزعة التجارية على زراعتها يزداد بسرعة، فبعد أن ساهم

(١٧) دوماني ص؛ (١٢١)

(١٨) دوماني ص؛ (١٢٣، ١٢٤)

القطن في تمهيد الطريق أمام تنامي الاتجار مع أوروبا، تجاوزته في أواسط القرن التاسع عشر سلع أخرى، أصبحت محاصيل تجارية أهم وأولى بالتصدير، مثل: القمح، والشعير، والسمسم، وزيت الزيتون، وأخيراً برتقال يافا الشهير.

لم يكن هذا التراجع يتوالى على نحو خط مستقيم ومتواصل، والأرجح أنّ أعوام الحكم المصري العشرة شهدت تزايداً إجمالياً في زراعة القطن، لأنّ السلطات المصرية شجعت الزراعة التجارية، فضلاً عن التجارة الخارجية مع أوروبا، وهناك تقدير بأنّ سياسة إبراهيم باشا، في "الزراعة القسرية"، أدّت إلى مضاعفة المساحة المزروعة قطناً في سورية الكبرى، وذلك في أواخر الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، ومجمل القول: أنّ إنتاج القطن تراجع في أواسط القرن التاسع عشر، ثم تصاعد حتى الذروة في فترة ندرة القطن في أوائل الستينيات منه، ثم تراجع مرّة أخرى.

إنّ المنافسة الإقليمية، وطبيعة الطلب الأوروبي المتقلّبة، وركود صناعة النسيج، كانت كلّها عوامل مهمة في الفترة الأولى من الانحطاط، فمن ذلك، أولاً، أن نوعية القطن المصري، بعد اكتشاف نبات الجومل (الماكو) الطويل التيلة (سنة ١٨٢٠م)، إضافة إلى كمية الإنتاج الضخمة في وادي النيل، قد قلّصتا أهمية فلسطين، من حيث هي مَصْدر للقطن، تقليصاً كبيراً، ذلك بأنّ طوبوغرافية هذه المنطقة الصغيرة ومناخها لم يتيحا لها اقتصاداً واسع النطاق، ولا تطويراً لاقتصاد أحادي المحصول، كما هي الحال في مصر، فضلاً عن أنّ تيلة قطنها القصيرة لم تعد مرغوبة.

كما سبّب الطلب البريطاني على الحبوب (القمح والشعير)، لا سيما بعد إلغاء قوانين القمح، تحوّلا في نسبة الأراضي المخصّصة لهذا الغرض، وقد رحّب الفلاحون بهذا التغيير، لأنّهم كانوا يفضلون زراعة الحبوب؛ فالحبوب، إذا ما قوبلت بالقطن، أقدر على التحمّل، وزراعتها أسهل، وهي تحتاج إلى كمية ماء أقل، كما أنّها لا تستنزف التربة بالقدر نفسه، ولا تستلزم القدر نفسه من العمل، كذلك، فإنّ زراعة الحبوب وتسويقها هي عملية تجارية أقل مجازفة، فثمّة على الدوام سوق محلية أو إقليمية للقمح، بينما كانت سوق القطن عرضة للمخاطر، جرّاء تقلّب الأسعار العالمية، وأوضاع صحّة صناعة النسيج، وأخيراً، قطَعَ تزايدُ استيراد الخيوط المغزولة آلياً من إنكلترا الطلب المحلي، والإقليمي على القطن الخام الفلسطيني، وخيوطه المغزولة، لأنّ المواد الإنكليزية كانت أقوى وأفضل نوعية، وإن لم تكن دائماً

أفضل ملاءمة للصناعة المحلية، غير أن تأثير المنافسة الأجنبية لم يكن مدمّراً، إذ إنّ استمرار الطلب المحلي والإقليمي خفّف من وقعه، إضافة إلى أنّ دور نابلس المركزي، في تصنيع القطن في فلسطين، استمرّ حتى فترة متقدّمة من أوائل القرن العشرين(١٩).

جبل نابلس.. وسياسة التجارة الحرّة

في الثلاثينيات من القرن التاسع عشر، وفي ذروة سيطرة نابلس على تجارة القطن، تحديداً، هدّدت سياسة تجارية جديدة مكانة المدينة، بوصفها عاصمة فلسطين التجارية، بلا منازع. فقد فتحت مَركزة الحكم المصري للسلطة السياسية في سورية الكبرى، ودعمها لنشاط التجار الأجانب، آفاقاً جديدة للتجارة الخارجية، وتداول رأس المال التجاري. ذلك بأن السلطان محمود الثاني (ولد ١٧٨٥م؛ في السلطة ١٨٠٨م - توفّي ١٨٣٩م)، (نظراً لمّا اضطرّته الهزائم العسكرية الفادحة، التي أنزلتها به القوات المصرية، إلى الاعتماد على مساعدة القوى الأوروبية لإعادة تثبيت سلطته مقابل محمد علي باشا)، وافق، في العام ١٨٣٨م، على (المعاهدة التجارية الأنكلو ـــتركية للتجارة الحرّة)، التي ألغت الاحتكارات، وخفَّضت التعرفة الجمركية على البضائع الأوروبية، وفتحت الأسواق الداخلية للامبراطورية، كما أنّه أرسى الأسس لسلسلة شاملة من الإصلاحات السياسية والإدارية والمالية (التنظيمات)، التي أُعلنت بعد أربعة أشهر على وفاته عام ١٨٣٩م، وكانت مَصمَّمَة لتيسير سيطرة أكبر للدولة على موارد الامبراطورية البشرية والمادية، وقد سهّلت هذه التنظيمات للتجار الأوروبيين والإقليميين الوصول إلى الأسواق الداخلية، على حساب نظرائهم المحليين الراسخين، ونتيجة لذلك، توسّع مباشرة حجم جاليات التجار الأجانب في الامبراطورية العثمانية توسعاً حاداً، لا سيّما في بيروت وسواها، من مدن الموانىء الساحلية(٢٠).

نابلس.. والأوروبيّون وغزو الأسواق العثمانية

جاء غزو البضائع البريطانية والأوروبية على ثلاث مراحل؛ أولاً: إدخال خيوط قطنية مغزولة آلياً، في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، وهي خيوط ذات قدرة أعلى على المنافسة، إذ كانت أقوى من الخيوط المغزولة محلياً،

(١٩) دوماني ص؛ (١٢٧، ١٢٨)

(٢٠) دوماني ص؛ (١٣٠، ١٣١)

وأفضل صنعاً، وأرخص ثمناً، ثانياً: محاولات واعية لتقليد بعض الملابس الدارجة، عند العناصر المدنية الموسرة، ثالثاً: القيام باقتحام نهائي لسوق الفلاحين والطبقات المدنية الدنيا، في الخمسينيات من القرن التاسع عشر.

حيث أضحت بريطانيا الشريك الأوروبيّ الغالب للإمبراطورية العثمانية، في النصف الأول من القرن التاسع عشر، وصارت الامبراطورية العثمانية الشريك التجاري الرئيسي الثالث لإنكلترا، وكان أكثر من ثلث مجموع الصادرات البريطانية إلى الامبراطورية العثمانية يتكون من الأقمشة القطنية[٢١].

وكانت مركزية الأقمشة في الصادرات البريطانية أبرز في حال سورية الكبرى، ثم تلا ذلك تراجع بطيء عندما استقرّت السوق، كان من شأن هذا التوسع النشيط في سورية الكبرى، (الناجم جزئياً عن التحسينات التقنية، كإدخال خدمات السفن البخارية بصورة منتظمة في أواسط القرن التاسع عشر، التي خفّضت نفقات النقل وقلّصت مدته، وجعلت النقل البحري آمناً وأكثر انقياداً للتوقعات)، أن ساق كثير من المراقبين الغربيين المعاصرين إلى أن يعلنوا، في مجلّاتهم الدورية وتقاريرهم، نهاية الحِرَف المحلية إجمالاً، وصناعة النسيج تحديداً. ففي سنة ١٨٧٥م، كتب شموئيل أفيتسور يقول: (إنّ مراكز (صناعة) النسيج المحلية، كبيت جالا ونابلس، وفي وقت لاحق الخليل وغيرها من المدن، كانت في القرن التاسع عشر قد باتت إمّا خربة تماماً وتلاشت، وإمّا اختزلت إلى حجم حرفة رديفة، تتيح زيادة قليلة في دخل الحرفيين المنكوبين، الذين راحوا يكدّون لكسب القوت بطرق أخرى).

وقد كتب المؤرّخ المحلّي إحسان النمر، في هذا السياق، فصلاً بعنوان (قتل الصناعات المحلية)، يقول فيه:

(باتت صناعات البلاد تتعطّل بنسبة عكسية مع الصناعات الغربية. فباستعمال المصباح البترولي، تعطّلت السُرجُ والعوّامات المحلّية. وباستعمال الصفيح، تعطّلت القِرَبُ، فتعطّلت مَدابغها. وباستعمال الجِلد الإفرنجي، أخذت تتقهقر صناعة الجلود البلدية، إلى أن لم يبقَ من سبع مدابغ بلدية سوى بقية المدبغة الحاضرة، التي توقّفت عن العمل، وبقيت أنقاضها، التي رُدِمت بمرور شارع فلسطين. والضربة القاضية هي التي أصابت أنوالَ النسيج، التي بلغت من الكثرة في المدينة والقرى حداً عظيماً، حتى ضرب المثل بازدحام سوق القطن. فكان يقال: (وين فطيمة بسوق القطن)، أو

(٢١) المحفوظات الملكية؛ رستم مج (٤)؛ ص ٣٢٦ــــ ٣٣١؛ ص ٣٣٣. دوماني ص؛ (١٣٢)

بسوق الغَزل (المؤلّف). وما أصاب المنسوجات القطنية أصاب المنسوجات الصوفية، إلى أن قضي على صناعة البشوت (جمع بِشت، وهي كلمة سامية تعني العباءة؛ المؤلّف)، في أزمة الصوف الأخيرة. وبالقضاء على صناعة النسيج، قُضي على المصابغ، التي كانت تبلغ العشرين، فتقلّصت على أجران بسيطة، لم يبقَ منها إلا مصبغة بسيطة لآل العبوة، قرب الجامع الكبير. وكانوا يستعملون الملاعق الخشبية، ومنها خشب البقش، فلما وصلت المعدنية أبطلتها. وباستعمال قلائد الليرات العثمانية، والحلي الإفرنجي، قُضي على الصباغة، إلى أن انكمشت إلى حد بسيط جداً، بعد أن كانت نامية. وبإدخال وابور الطحين، قُضي على مطاحن الماء والهواء والحيوان. وكذلك معاصر الزيتون والسمسم، إذ أصبحت آلاتها جميعاً تُستورد من الخارج، وقد بلغ محصول الزيت بلواء نابلس اثني عشر ألف طن، تُدرس بآلات حديدية، وقد تعطّلت البُدود (جمع بَدّ) الحجرية. وقد استعملوا الصودا للصابون، فتعطّل انتاج القلي. وقد ضعفت صناعات الحدادة والنجارة إلى حد كبير. وباستعمال العقاقير الإفرنجية، تعطلّت العقاقير البلدية والوصفات)[٢٢].

بتجارة القطن والأقمشة اندمج اقتصاد فلسطين في الاقتصاد العالمي، إضافة إلى دور التجار المحليين في العلاقة المتغيرة بين السياسة والتجارة. وتبين قصة القطن أن القفزة النوعية، في علاقات التجارة بأوروبا خلال فترة ١٨٥٦م- ١٨٨٢م، لم تكن تطوراً مفاجئاً، كما لم تكن مجرد نتيجة اختراق أوروبي. فالمجتمع الفلسطيني كان تامّ النضج، لإقامة علاقات تجارية متسارعة الوتيرة مع أوروبا، والفضل الأكبر في ذلك يعود إلى كون التجار والفلاحين الفلسطينيين، لا سيّما أولئك المقيمين بالداخل، قاموا بدور نشيط في تهيئة البنى الاجتماعية ـــ الاقتصادية والسياسية الأساسية، التي جعلت تلك القفزة ممكنة أصلاً. ثم إنّ التجارة الإقليمية ظلّت متقدمة على سواها، حتى العقود الأخيرة من الحكم العثماني، في المناطق الداخلية كجبل نابلس، على الأقل. فالمسألة، تتعلّق بالتوجّه والتسارع، أيام كانت الامبراطورية العثمانية كلّها تدخل بالتدريج في فلك الاقتصاد الأوروبي.

خلال القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر، تحوّلت السيطرة على إنتاج القطن والاتجار به من عكا إلى نابلس، غير أن عملية اندماج جبل نابلس في النظام الرأسمالي العالمي كانت بطيئة. ذلك بأنّ موقع نابلس الداخلي، وما كان لجماعة التجار فيها من نفوذ، وما لها من تقاليد عريقة في الغيرة على صون استقلاليتها المحلية، إنّما

(٢٢) دوماني ص؛ (١٤٦، ١٤٧)

هـي عوامـل تضافـرت علـى اسـتيعاب القـوى السياسـية والاقتصاديـة الخارجيـة باطّـراد متدرّج، وإعادة إنتاجها محلياً. يضاف إلى ذلك أنّ إنتاج القطن كان موجَّهاً لتلبية حاجات السوق الإقليمية والمحلية، لا حاجات التجار الفرنسيين والبريطانيين فحسب. ولذلك لم يكن جبل نابلس عرضة بصورة كلّية للعطب، من جرّاء التقلبات في الطلب الأوروبي. كما أنّ عملية الاندماج لم تكن متساوية، فالقطن لم يزرع إلاّ في المناطق الساحلية والسهول. وقد كانت القرى في هذه المناطق أكثر انخراطاً في التجارة مع أوروبا من تلك القائمة على المرتفعات الوسطى والنواحي الشرقية، والتي كانت تنتج الزيتون أساساً [٢٣].

زيتون نابلس وفلسطين ورمزيته..

إنّ «خيرَ الصابون وأشهره، اليوم، هو الصابون النابلسي. وفيه، على ما يظهر، خاصيّة ليست بغيره، أو أنّ السرّ، في جودته، هو إتقانه بدون غش. وكان له من الشهرة ما جعل الصابون المصنوع على غراره يوسم بـ «الصابون النابلسي». وحتى في القرن العشرين، أعلن معمل زيت حديث، أسّسه المستوطنون اليهود في فلسطين خلال الانتداب البريطاني، ويُدعى "شيمن المحدود"»، أنّ النخب الأول من صابونه هو "من نوعية النابلسي"».

-محمد كرد علي؛ مجلّة المقتبس؛ النصف الأوّل من القرن العشرين -

إنّ «شجرة الزيتون هي الوثيقة المادّية للتاريخ»، بتعبير ديفيد أوركهارت (١٨٥٠م)، وهو تعبير، ومنذ أقدم العصور، يصحُّ على فلسطين عامة، وعلى جبل نابلس خاصة، وذلك لاعتماد أهاليه الأكبر عليها.

واليوم تعتبر شجرة الزيتون أيقونة وطنية عند الفلسطينيين. فانتشارها الكثيف في التلال والأودية، وكذلك عمره الممعن في الدهور، يرمزان إلى الرسوخ والتجذّر، والانتماء، والبقاء على الرغم من الصعوبات كافّة. وهي ترمز أيضاً إلى تاريخ للفلسطينيين مغرقٍ في القدم، حين كانوا فلاحين أحرارَ، يعيشون من ثمار الأرض وغلالها. ومن سخرية المقادير، أنّ أهمية شجرة الزيتون في الوعي السياسي الفلسطيني تزايدت بنسبة معاكسة لأهميتها في الحياة المادية. ففي الوقت الحاضر، لم يبقَ إلاّ قلة قليلة من الفلسطينيين الذين يكسبون رزقهم من الزراعة، وقلّة أقل ممن يعتمدون على الزيتون حصراً في معيشتهم. وحتى صابون نابلس الشهير، بات يُصنع معظمه اليوم من زيت زيتون مستورد[٢٤].

(٢٣) دوماني ص؛ (١٤٨، ١٤٩)

(٢٤) شولش، تحولات جذرية؛ ص (٩٣__١٣٣). دوماني ص؛ (١٥٦).

زَيتونُ نابلس.. وزيتُها وصابونُها..

في الوقت الذي استحرّت فيه المنافسة الأوروبية ركود قطاعات صناعية أخرى، أصبحت صناعة الصابون القطاع الاقتصادي الأكثر دينامية وهيمنة، فقد ازداد عدد المَصابن العاملة بكامل طاقتها في نابلس ثلاثة أضعاف، وزاد حجم الإنتاج أربعة أضعاف تقريباً، وتصاعدت أثمان المصابن بسرعة هائلة. ولم يكن ذلك جزءاً من انبعاث عام لصناعة الصابون في سورية الكبرى. بل إنّ إنتاج الصابون قد انخفض انخفاضاً حاداً، في جميع مدن وبلدات المنطقة، مع إمكان استثناء نابلس.

وتصعب المبالغة في تقدير أهمية هذه التطورات في فهم اقتصاد نابلس السياسي، والتغير في دور جماعة التجار. فربما بزَّت نابلس مدن الساحل المتنامية، خلال القرن التاسع عشر، كما بزَّت معظم المناطق الداخلية في سورية الكبرى، وربما فَتّ من عضدها استيراد البضائع الأوروبية. لكن مادام كان ثمّة سوق يمكن الاهتداء إليها، وربح يمكن أن يُجتنى، فإنّ تجار نابلس وصَنايعيها لم يتردّدوا في استثمار المال في الصناعات المحلية، ولم يتهيّبوه.

وقد تضافر عدد كثير من العوامل على دفع هذه الصناعة إلى الأمام. فالصابون كان يُصنع من زيت الزيتون، رأس المنتوجات الزراعية في جبل نابلس. وهذا ما جعل إنتاج الصابون أفعل السبل لاستغلال فائض الريف، وأهم مصادر الثروة في جبل نابلس. ثم إنّ نابلس تقع على قُرب ملائم من الضفة الشرقية لنهر الأردن، حيث كانت المصدر الثاني للمادة الخام، من حيث الأهمية، وهي نبتة الحرض، التي تنمو هناك بكميات كبيرة، والتي كان رمادها يشكّل الصودا القلوية الطبيعية المعروفة بالقلو.

كانت صناعة الصابون تستلزم رأس مال كبيراً، وتنطوي على هوامش ربح واسعة. وكانت، من حيث هي حقل استثمار فائق الملاءمة، لتركيز الثروة الجاري في جبل نابلس، بديلاً مغرياً من الأنشطة الصناعية المحلية الأخرى، كإنتاج الأقمشة الذي كان بدأ يتأثّر بوطأة المنافسة الإقليمية والأوروبية، ولم ينحصر تركيز الثروة داخل جماعة التجار فحسب، بل شَمل كلّ عائلة تجار على حدة أيضاً.

كانت المَصابن موضع تقدير عال، لأنها كانت أكبر مؤسسات الإئتمان في جبل نابلس وأهمّها، ولذا كانت تعمل عمل المصارف. فقد كان قسط كبير من زيت زيتون المنطقة يُخزَّن في الآبار الكبيرة المتعدّدة، المحفورة تحت كلّ مصبنة. ولم تكن

هذه الآبار تستخدم لتخزين زيت الزيتون المعدّ لصناعة الصابون فحسب، بل كانت تستعمل أيضاً للإيداع والسحب من قبل الفلاحين والتجار، وحتى من قبل جباة الضرائب الحكومية المحلّيين، الذين كثيراً ما كانوا يستوفون الرسوم زيتاً. ولمّا كان أصحاب المصابن يُسلِّفون الفلاحين المالَ مقدّماً على المواسم المأمولة، بواسطة عقود التسليم، فقد كانوا يقدّمون تسليفات مرتفعة الفائدة. ومثلما اقتطع تجار الأقمشة جيوباً جغرافية من الزبائن في ريف نابلس، فقد كان لكلّ مصبنة زبائن من قرى معيّنة.

كان الاستثمار في إنتاج الصابون، بالنسبة إلى أولئك الذين كان لديهم مبالغ كبيرة من رأس المال، وقدر قليل من النفوذ السياسي، عملاً ينطوي على القليل من المجازفة، لأنّ نوعية صابون نابلس كانت تضمن له طلباً قوياً وثابتاً في الأسواق الإقليمية، ولا سيما في مصر. والواقع أنّ نابلس كانت معروفة بإنتاج الصابون منذ القرن الرابع عشر على الأقل، وكانت شهرة صابونها قد استقرّت منذ زمن بعيد قبل الحكم العثماني.

حافظ الصَابون النابلسي على شهرته، بأنّه الأفضل في سورية الكبرى خلال العهد العثماني وما بعده، إنْ لم يكُن إلى ما أبعد من ذلك[٢٥].

اشتملت صناعة الصابون على إقامة قاعدة للتجّار في مدينة نابلس ذاتها. ومع أواسط القرن التاسع عشر، كان قد تبلور في جبل نابلس نخبة جديدة مركّبة، محورها جماعة التجار.

كانت القوة السياسية، بحسب ما توحي به هذه الصفقات تضميناً، بالغة الأهمية لإنتاج الصابون، لأنّ أصحاب المصابن كانوا بحاجة إلى نفوذ كبير، ليجمعوا بين عناصر الإنتاج وقواه المتعدّدة. فقد كان عليهم أن يبنوا شبكة معقّدة، تضم مجموعة واسعة من الفئات الاجتماعية المتفرّقة جغرافياً، كي يضمنوا الإمداد الكافي والقوى العاملة، وهي:

- فلاحون في جبل نابلس وعجلون، يُنتجون زيت الزيتون والشِيد (العنصر المكوّن الثالث) وينقلونهما.
- جماعة من البدو على الضفّة الشرقيّة لنهر الأردن تجمع كميات كبيرة من نبات الحرض، لحرقها ونقل الرماد إلى نابلس، بقوافل كبيرة.

(٢٥) دوماني ص: (٢١٦، ٢١٧)

- فِرَقٌ من الحرفيّين والعمّال، يطبخون الصابون ويقطّعونه ويوضّبونه.
- تجارٌ يشترون الزيت، ويطلبون طبخات من الصابون، ويُشغلّون شبكات تجارة إقليمية.

فلولا توفّر الحد الأدنى من القوة السياسية أو، على الأقلّ، المدخل إلى هذه القوة، لما كان في قدرة جماعة التجّار الاستثمار المكثّف في إنتاج الصابون، ولكانت المزايا الطبيعية للمدينة قليلة القيمة، قياساً ببعض مراكز إنتاج الصابون الأخرى.

وقد اكتسبت العلاقة الوثيقة، بين السياسة وإنتاج الصابون، أهمية إضافية، في أثناء فترة الإصلاحات العثمانية، يوم وصلت جماعة التجار إلى المناصب السياسية[٢٦].

الصَابون والاقتصاد..

ثمّة ثلاثة عناصر جعلت إنتاج الصابون في نابلس صناعة تستلزم رأس مال كبير، وهي:

أوّلها الأصول الثابتة؛ المَبنى الضخم، والآبار لتخزين الزيت، والقِدْر النحاسية الكبيرة لطبخ الصابون، وكانت باهظة التكلفة، من حيث الشراء والبناء والصيانة.

ثانيها، أنّ الصابون كان يُطبخُ بكميات كبيرة، تستلزم توظيفاً مالياً أوّليّاً وافراً في المواد الأولية.

– ثالثها، أنّه، ربّما، كان يمرُّ عامان أو ثلاثة أعوام، قبل أن يحصل التجّار على إيرادات من رأس المال الذي وظّفوه.

لكلّ ما سَبق، كان لابدّ من تهيئة المواد الأولية قبل عام من بدء التصنيع، كي يُضْمَن الإمداد الكافي. وكانت عملية طَبخ الصابون، وتَجفيفه، وتَوضيبه، وشَحنه، وبَيعه، تستلزم عاماً آخر على الأقلّ.

لذلك، كان لابدّ من تراكم رأس المال، والمشاركة فيه على عدّة مستويات، من أجل جمع المبلغ المطلوب لمراحل الإنتاج كافّة. وفيما عدا بعض الاستثناءات النادرة، فإنّ تقسيم العمل الأساسي، فيما يختص بتوظيف رأس المال، حتى أوائل القرن التاسع عشر، كان يتوزّع بين التجّار، الذين قدّموا الطلبات لإنتاج الصابون، ووفّروا

(٢٦)دوماني ص: (٢٢٤، ٢٢٥، ٢٢٦)

أغلى المواد الأولية والزيت، وبين أصحاب المصابن، الذين قدّموا المكان والقوى العاملة والمواد الأولية الأخرى. وحيث سادت المشاركة ضمن كل فريق، فقد كانت المصابن ملكيات مشتركة، في أغلب الأحيان، كما كان تجّار الزيت يجمعون مواردهم ويدمجونها، للتعاقد على طبخة الصابون (وكانت كلّ طبخة تستهلك أكثر من خمسة أطنان من زيت الزيتون).

وقد أدّت عملية تراكم الثروة في نابلس، حتى أواسط القرن التاسع عشر، إلى الاندماج العمودي لهذه الصناعة، بحيث بات بعض الأفراد يموّل بمفرده مراحل الإنتاج كافّة. ولم يُفضِ هذا التطوّر إلى تغيرات نوعية في عملية الإنتاج، التي بَقيت، على نحو لافتٍ، على حالها خلال العهد العثماني كلّه، وإلى حدٍّ كبير حتى اليوم. وكان الأبلغ دلالةً هو تزايد عدد المَصابن، وارتفاع أثمانها، ومثلهما حجم الإنتاج[٢٧].

ومما يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتوسع إنتاج الصابون، هو تركّز الثروة عند جماعة التجّار، وهي العملية التي أدّت إلى الاندماج العمودي للإنتاج، في أواسط القرن التاسع عشر[٢٨].

دَورةُ إنتاج الصَابون والنسيج الاجتماعي..

كان تراتب الفئات الاجتماعية المنخرطة في عملية إنتاج الصابون يشبه (التنانير؛ الأهرامات)، وهي مكعبات الصابون المكدّسة على شكل مخروطات بغية التجفيف (انظر صورة مَصبنة آل المصري ١٩٤٠م)، المنتصبة كالحرّاس الصامتين في المَفرش. ففي القاعدة، التي تحمل البنية كلّها، كان الفلاحون الذين أنتجوا زيت الزيتون، والبدو الذي زوّدوا المَصابن بالقلو، والعمّال غير المَهرة. وفوقهم، كانت الفئات المتنوّعة من السماسرة وصغار التجار، الذين عملوا عمل أطراف أخطبوط عملاق؛ شُراةٌ وباعةٌ صغار؛ دائنون؛ وكلاء؛ مراقبون.

في الطبقة الثانية، كانت تنتشر مجموعة صغيرة من عمال المّصابن، المَهرة وأشباه المَهرة، وهم الذين كانوا يُمسكون بالمهمّات المركزية في صناعة الصابون. وكان موقعهم يتوقّف على تراتبية داخلية، تقوم على نوع العمل الذي يقومون به، والمنشأ العائلي، وعلاقات الولاء بأصحاب المَصابن. وتتجلّى قدرتهم على أن يقتطعوا لأنفسهم، مع مرور الزمن، حيّزاً مميَّزاً في أنّهم كانوا، في معظمهم، ينتمون إلى عائلات احتكرت

(٢٧) دوماني ص؛ (٢٢٧)

(٢٨) دوماني ص؛ (٢٢٨)

مختلف مراحل الإنتاج، منذ زمن بعيد، قبل القرن التاسع عشر، حتى فترة الانتداب البريطاني في القرن العشرين. وبالقرب من قمّة الهَرم نفسها، كان هناك تجّار الصابون، الذين كانوا يقدّمون الزيت، فُرادى أو جماعات، وطَلبيات طَبخه صابوناً، ويُسوّقون الصابون. وكان الكثير من هؤلاء التجار يتعاملون أصلاً ببضائع أخرى، فقد كان بينهم معظم تجار الأقمشة بالجملة. وفي القمّة، كان أصحاب المَصابن، الذين قدّموا مع شركائهم مواقع الإنتاج وتجهيزات المواد الأولية كلّها عدا الزيت، كما أشرفوا على تنظيم الإنتاج. وقد ضمّت الصفوة الداخلية منهم، حتى أوائل القرن التاسع عشر، العائلات الحاكمة ووجوه رجال الدين. ومن جميع الفئات الاجتماعية المنخرطة في إنتاج الصابون في جبل نابلس، منذ أواخر القرن الثامن عشر حتى أواخر القرن التاسع عشر، فإنّ أكثر ما هو معروف هو عن أصحاب المصابن، وإلى درجة أقل عن تجّار الزيت. وذلك بسبب ما خَلّفته من وثائق كلّما اشترى فرد منهما عقاراً، أو باعه، أو بادله بغيره، فضلاً عن الدعاوى، والمعاريض، و/أو تسجيل تركة فرد منهما في المحكمة.

عُمّال المَصابن..

لم يكن إنتاج الصابون عملية تحتاج إلى قوى عاملة كثيرة العدد، ولم يكن يتطلّب مجموعة واسعة من العمال المَهرة، كما أنه لم يُولّد إلاّ القليل من الصناعات المتّصلة به. وفيما عد الأصول الثابتة، كانت التجهيزات، من رفوش، ودلاء، وجرار، وأجران، ومدقّات، ودكشاب (محراك)، مسائلَ بسيطة، ولم تستلزم تصاميم أو نوعية خاصّة. وقد تخصّص بعض الحرفيين، ومعظمهم من آل الفطاير والشامي، بصنع أكياس صلبة، مصمّمة لتخفيض الاحتكاك بين مكعبات الصابون إلى أدنى حد، لتحافظ على وزنها وشكلها، خلال الرحلة الطويلة إلى مصر والأسواق الإقليمية، أمّا القِدْر النحاسية، فكانت تخدم أعواماً طويلة، وما من دلالة على أنّها كانت تُصنع محلياً في مشاغل متخصّصة [٢٩].

أصحابُ المَصابن..

شَكّل أصحاب المصابن، في مدينة صغيرة بحجم نابلس، نادياً محدود العضوية، قوامه أعضاء أقوياء، جمعوا النفوذ السياسي والثروة والمكانة الاجتماعية المرموقة. وكانت آليّتان متضافرتان تتحكمان في الدخول إلى هذا النادي المحدود العضوية،

(٢٩) دوماني ص؛ (٢٣٩، ٢٤٠)

وهـي؛ التحـوّل الهيكلـي الطويـل الأجـل في المجتمـع النابلسـي، مـن جهـة، والتحـوّلات المفاجئـة نسـبياً في ميـزان القـوى داخـل النخبـة الحاكمـة، مـن جهـة أخـرى.

كانـت هاتـان الآليتـان مترابطتـين، كمـا كانـت كل واحـدة منهمـا تعـزّز الأخـرى. وقـد كان لتفاعلهمـا، خـلال القرنـين الثامـن عشـر والتاسـع عشـر، أثـر اندماجـي؛ فقـد أفضتـا، علـى نحـو لا يُقـاوَم، إلـى بـروز نخبـة واحـدة ذات قاعـدة ماديـة مشـتركة. ويمكـن أن يبصـر المـرء هـذا الأثـر الاندماجـي بوضـوح في حـال العائـلات الحاكمـة القديمـة، التـي أفلحـت في الحفـاظ علـى موطـئ قـدم لهـا في النـادي المحـدود العضويـة، طـوال العهـد العثمانـي. ومـا اسـتمرار عضويتهـا في الأسـاس إلاّ ثمـرة مـن ثمـار التحـوّل في قاعدتهـا الماديـة. إذ باتـت هـذه العائـلات الحاكمـة القديمـة، التـي تكيفـت تكيفـاً ناجحـاً، وفـق التغيـرات في الاقتصـاد السياسـي لجبـل نابلـس، تشـبه التجـار بصـورة متزايـدة في كلّ شـيء إلاّ في الاسـم والسـمعة أو، بعبـارة أدق، مـا كان يعنيـه كـون المـرء تاجـراً في أواسـط القـرن التاسـع عشـر[٣٠].

مـا فَتِئَـت مَصابـنُ نابلـس تطبـخ الزيـتَ وتحـوّلـه إلـى صابـون، منـذ مئـات السـنين. غيـر أنّ القـرن التاسـع عشـر يُسـجّلُ بُـروزَ فتـرة اسـتثنائية مـن التوسّـع والنمـو النشـيط. فبينمـا كانـت المناطـق الداخليـة مـن الأراضـي العثمانيـة تتهـاوى كالفرائـس، أمـام نمـط جديـد مـن التجـارة، يَسـتخدم المـدن السـاحلية لامتصـاص المـواد الأوليـة، ويطـرح بضائـع مسـتوردة بـدلاً منهـا، أفلـح قطـاع صناعـي قديـم في مدينـة داخليـة صغيـرة (نابلـس) في النمـوّ والازدهـار، مـن دون إدخـال تكنولوجيـا جديـدة، أو تطويـر تقنيـات حديثـة، أو فتـح أسـواق جديـدة، أو الاعتمـاد علـى توظيـف رأس مـال أجنبـي. وقـد نظّـم هـذا التوسـع تجّـار الداخـل، الذيـن حصلـوا باسـتمرار علـى كميـات كبيـرة ومتزايـدة باطـراد مـن زيـت الزيتـون، والذيـن أداروا شـبكات واسـعة النطـاق، لا سـيّما مـع مصـر والأناضـول وشـبه الجزيـرة العربيـة، وأقامـوا علاقـات مـع قبائـل بدويـة وفلاحـين ومدينيّـين علـى الضفـة الشـرقية مـن نهـر الأردن؛ وهـي منطقـة لـم تسـيطر عليهـا الحكومـة العثمانيـة نفسـها، ولا حتـى بأدنـى درجـات السـيطرة، إلاّ في الربـع الأخيـر مـن القـرن التاسـع عشـر.

وكَمـا ترافـق توسّـع صناعـة الصابـون مـع تركيـز الثـروة، واندمـاج عناصـر الإنتـاج علـى اختلافهـا، كذلـك ذابـت الحـدود بـين السـلطة السياسـية والثـروة والمكانـة الاجتماعيـة، محوّلـة طُـرُقَ التحـوّل الاجتماعـي، التـي كانـت مختلفـة ومتمايـزة فيمـا مضـى، إلـى جـادّة واحـدة باتـت تهيمـن عليهـا الثـروة. فقـد كان تسـلّل التجّـار إلـى نـادي أصحـاب المصابـن،

(٣٠) دوماني ص: (٢٤٧)

المحدود العضوية، قد بدأ قبل الاحتلال المصري، ومثله تماماً كانت المرحلة الأولى المتماسكة من توسّع إنتاج الصابون. وقد كان من شأن الأجواء السياسية الجديدة، المتولّدة في الثلاثينيّات من القرن التاسع عشر، ثم المستمرّة بفضل أنشطة المَركَزة، التي قامت بها الحكومة العثمانية وبرامجها الإصلاحية، أن بَلورَت نخبةً مُركّبةً جديدة في جبل نابلس، قوامها جماعة التجّار، كما شكّلت أيضاً تلك الفترة وحَدّدت نظرة مدينة نابلس وأهلها ونخبتها التجارية إلى العالم[٣١].

(٣١) دوماني ص؛ (٢٧٧)

بلدية نابلس في العهد العثماني ١٨٦٨-١٩١٨م

د. مروان محمد حمدان الاقرع [١]

الملخص

تدور هذه المقالة حول بلدية نابلس التي تأسست في عام ١٨٦٨م حيث أسهمت البلدية في نهضة المدينة في مختلف الجوانب الادارية، والتعليمية، والاقتصادية، وتناغمت مع الواقع الجديد الذي شهدته الدولة العثمانية بعد صدور قانون الولايات وقانون البلديات، وتعاقبت على البلدية مجالس بلدية متعددة منذ إنشائها الى عام ١٩١٨م تاريخ الاحتلال الإنجليزي للمدينة، لقد تنوعت أعمال البلدية من نواحي عديدة، أهمها: الجانب العمراني، والهندسي، والجانب الصحي، والتعليمي، والثقافي، والاجتماعي.

المقدمة:

تعد هذه الفترة الزمنية التي عايشتها المدينة، من أهم الفترات الزمنية، التي كان لها دور بارز في رسم الصورة المستقبلية للمدينة حيث شهدت المدينة نهضة عمرانية وفق أسس هندسية حديثة أسهمت في تنظيم الشوارع والبيوت والمحلات التجارية، كما تطور التعليم، وأسس عدد من المدارس، وتحسن الوضع الصحي، مع إنشاء المستشفى الوطني، وعلى الصعيد الاجتماعي أسهمت البلدية في مساعدة الفقراء والغرباء، الذين تقطعت بهم السبل.

تعددت المجالس البلدية خلال فترة الدراسة، وتعددت أعمال البلدية، التي واكبت الحالة العامة التي سادت الدولة العثمانية لتشمل خدمات واسعة؛ حيث نظمت الجانب المعماري، وعملت على تنظيم المدينة، ودعمت القطاع التعليمي والصحي والثقافي، وعملت على إنشاء بنية تحتية قوية تحافظ على مكانة المدينة من حيث العمق التاريخي للمدينة كمركز للواء نابلس وعلى مكانتها التجارية والاقتصادية مما شكل أهمية خاصة للمدينة، ولدورها في محيطها.

(١) باحث في التاريخ

النشأة والتطور:

تأسست بلدية نابلس في عام ١٢٨٥ه/١٨٦٨م[٢]، وذلك بعد انشاء بلدية القدس الشريف، بخمس سنوات، حيث كانت ثاني بلدية تأسس بعد بلدية العاصمة إسطنبول، ولم يكن للبلديات قانون ينظم عملها، إلى أن صدر قانون الولايات في عام ١٨٦٤م وقانون البلديات ١٨٧٧م، الذي نظم عملها، وأصبح دستوراً لها[٣]،كان مقر البلدية موجوداً داخل مقر الحكومة العثمانية في محلة القريون[٤]، وقد اختير الشيخ "محمد تفاحة الحسيني"، الذي كان قائمقام نقيب الأشراف[٥]، أول رئيس لبلدية نابلس[٦]، وأما أعضاء البلدية فهم: علي طوقان، وسليمان طوقان، وعبد الفتاح النمر، وحسن عبد الهادي، ومحمد البسطامي، وعبداللطيف عبدالهادي، وبشير طوقان، و وتوفيق حماد، ومحمد عبده[٧].

أصدرت الدولة العثمانية قانوناً يخص البلديات في عام(١٢٨٨هـ/ ١٨٧١م) وينصّ على تشكيل مجلس بلدي للنظر في الأمور البلدية في المدينة أو القصبة التي تكون مركز الولاية أو اللواء أو القضاء[٨]، كما حدد أهم أعمال البلدية وصلاحيات الرئيس والأعضاء[٩]، ويتألف من رئيس، ومعاون، وستة أعضاء، وعدد آخر من الأعضاء الاستشاريين، وبين هؤلاء طبيب البلدية ومهندسها، والكاتب، وأمين الصندوق، ويشكل عن طريق الانتخاب، ومدة انتخاب الرئيس والأعضاء سنتان، ويجري تغيير نصفهم كل سنة، ويمنع من العضوية كل من كان محكوماً عليه في جناية، أو جنحة، أو موظفاً، أو متعهداً، أو كان عمره أقل من عشرين سنة[١٠].

وينعقد المجلس البلدي مرتين في الأسبوع (الأحد والأربعاء) ومن لم يحضر ثلاث مرات يعدُّ مستنكفاً[١١]، وتم تشكيل لجنة للانتخابات من أجل إعادة انتخابات نصف أعضاء البلدية، وقد حدد من يصح له الاقتراع بأن يدفع (١٠٠) غرش ويركو في السنة، كما سمح للطوائف -المسيحية والسامرية- بدخول اللجنة والمشاركة في الانتخابات[١٢].

(٢) النمر، تاريخ، ج٣، ص٢٦.

(٣) الدباغ. بلادنا فلسطين، ج١٠، ص٢٠٠-٢٠١.

(٤) دروزة، مذكرات، ج١، ص١٣٠.

(٥) الراميني، نابلس، ص٤٩.

(٦) النمر، تاريخ، ج٣، ص٢٦.

(٧) المرجع نفسه، ج٣، ص٢٧.

(٨) النجار، الادارة، ص٢٥٦.

(٩) نوفل، الدستور، ج٢، ص٤٠٢.

(١٠) عوض، الادارة، ص١٠٩، ١١٠.

(١١) نابلس دفتر، ٥/٢٧، ١٣٢٥ه/١٩٠٩م، ص٢١.

(١٢) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٦١.

كان يعمل في البلدية عدد من الموظفين، منهم أمين الصندوق[١٣]، ووظيفته عمل الموازنات الخاصة في البلدية، وطبيب البلدية الذي كان مسؤولاً عن مراقبة الحالة الصحية داخل المدينة، ومعاقبة المخالفين[١٤]، ومن الأطباء الذين عملوا في البلدية محرم أفندي[١٥]، وجرجي أفندي[١٦]، وأيوب نجم الدين[١٧]، وعُيّن مأموراً لتلقيح الجدري، حيث كان يقوم بإعطاء الطعم لأهل المدينة وما حوالها من القرى[١٨]، كما عينت طبيباً بيطرياً كانت وظيفته تقوم على مراقبة ذبح الحيوانات، ومنع ذبح الحيوانات خارج السلخانة، ومنع ذبح الحيوانات المريضة والضعيفة[١٩]، وعينت مهندساً تقوم وظيفته على تنظيم الناحية المعمارية داخل المدينة، وعمل خريطة للمدينة من أجل شق الطرق وتصليح القائم منها[٢٠].

وكان هناك مأمور تنوير في كل حارة من حارات المدينة وظيفته إنارة شوارع المدينة بوساطة القناديل، حيث كان هناك ١٨٦ قنديلاً في مختلف حارات المدينة[٢١]، ومتعهداً للنظافة في كل حارة وظيفته إخراج النفايات خارج المدينة كل صباح[٢٢]، ومختاراً للبساتين، وفي الحر الشديد، وظفت البلدية أشخاصاً لرش الماء في الطريق؛ حيث وظفت شخصين لرش الماء من باب الحكومة الى بوابة الخضر[٢٣]، كما عينت البلدية حرساً لحراسة الأسواق، ودفع تجار المدينة رواتبهم[٢٤]، فقد عين حارس لحراسة خان التجار، وسوق العصايرة، وسوق البصل، وبلغت مصاريف البلدية في تموز عام ١٨٩٠م (٢٤٩٠) قرش، وكانت البلدية تراقب موظفيها، وتعاقب من قصر منهم في أداء واجباتهم[٢٥].

المجالس البلدية (١٨٦٨م - ١٩١٨م):

كانت المجالس البلدية، منذ ١٨٦٨م، تاريخ تأسيس البلدية، إلى عام ١٩١٨م، تاريخ انتهاء الحكم العثماني على المدينة، وبداية الاحتلال الإنجليزي، استنادا الى

(١٣) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٥٣.
(١٤) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٦٩.
(١٥) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٦٩.
(١٦) نابلس دفتر، ٥/٢٧، ١٣٢٥ه/١٩٠٩م، ص٦١.
(١٧) نابلس دفتر، ٥/٢٧، ١٣٢٥ه/١٩٠٩م، ص١١١.
(١٨) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٣٦.
(١٩) نابلس دفتر، ٤/٢٧، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص ٢٠٥.
(٢٠) نابلس دفتر، ٩/٢٧، ١٣٣٠ه/١٩١٤م، ص ٦١.
(٢١) نابلس دفتر، ٧/٢٧، ١٣٢٧ه/١٩١١م، ص٢٠٦.
(٢٢) نابلس دفتر، ٧/٢٧، ١٣٢٧ه/١٩١١م، ص ٢٠٨.
(٢٣) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٧ه/١٩١١م، ص ٨٣.
(٢٤) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص١٩.
(٢٥) نابلس دفتر، ٤/٢٧، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص ٧٤.

الأرشيف والسجلات العثمانية التي رصدت تلك الفترة المهمة من تاريخ المدينة، وفق الجداول الآتية التي تبين طبيعة تلك المجالس:

وفي عام ١٢٨٦هـ- ١٨٦٩م، وحسب سالنامة ولاية سوريا، كان المجلس البلدي مكوناً من التالية أسماؤهم، برئاسة الشيخ محمد تفاحة[٢٦]:

جدول ١: المجلس البلدي ١٢٨٦هـ- ١٨٦٩م.

رئيس المجلس	الأعضاء	
محمد تفاحة أفندي	معاون: طوقان زادة سليمان بك	علاء الدين زيد أفندي
	حسن يعيش أفندي	طبيب أحمد أفندي
	عبداه قمحية أفندي	أحمد بكري أفندي
	أحمد القاسم أفندي	بطرس أفندي
	أنطون سويده أفندي	الطبيب: صدقة أفندي
	الكاتب وأمين الصندوق: عبد اللطيف	

وأما في عام ١٢٨٨هـ-١٨٧١م فكان المجلس البلدي مكوناً من القائمة الآتية، وكان أيضاً برئاسة الشيخ محمد تفاحة[٢٧]:.

جدول ٢: المجلس البلدي١٢٨٨هـ- ١٨٧١م

رئيس المجلس	الأعضاء	
الشيخ محمد تفاحة أفندي	طبيب أحمد أفندي أبو غزالة	علاء الدين زيد أفندي
	نجيب أفندي الخماش	عبد السلام أفندي تحميد
	إبراهيم أفندي العبدو	أحمد أفندي النابلسي
	إلياس أفندي	انطون أفندي سويده
	إسرائيل أفندي	الكاتب وأمين الصندوق: ناصر أفندي

(٢٦) سالنامة ولاية سوريا، ١٢٨٦، ص ١٠٧.

(٢٧) سالنامة ولاية سوريا، ١٢٨٨هـ، ص٨٨.

وفي عام ١٢٩١ه-١٨٧٤م كان المجلس مكوناً ممن يأتي، وكان برئاسة عبد الرحمن عبد الهادي[٢٨]:

جدول ٣: المجلس البلدي ١٢٩١ه- ١٨٧٤م.

رئيس المجلس	الأعضاء	
عبد الرحمن أفندي	علاء الدين زيد أفندي	عباس أفندي
	نجيب أفندي الخماش	عبد السلام أفندي
	إبراهيم أفندي	حاجي يوسف أفندي
	إلياس تيرقاسي أفندي	انطون سويده أفندي
	إسرائيل سراوي أفندي	طبيب: أحمد أفندي
	الكاتب وأمين الصندوق: ناصر أفندي	

وفي عام ١٢٩٢هـ-١٨٧٥م كان المجلس مكوناً ممن يأتي، وكان برئاسة عبد اللطيف عبد الهادي[٢٩]:

جدول ٤: المجلس البلدي ١٢٩٢ه- ١٨٧٥م.

رئيس المجلس	الأعضاء	
عبد اللطيف أفندي	علاء الدين زيد أفندي	عباس أفندي
	نجيب أفندي الخماش	عبد السلام أفندي
	إبراهيم أفندي	بدوي أفندي
	إلياس تيرقاسي أفندي	انطون سويده أفندي
	إسرائيل السراوي أفندي	طبيب: أحمد أفندي
	عيسى أفندي	عبداه أفندي
	الكاتب وأمين الصندوق: ناصر أفندي	

(٢٨) سالنامة ولاية سوريا، ١٢٩١هـ، ص ٩٠.

(٢٩) سالنامة ولاية سورية، ١٢٩٢هـ، ص ١١٢.

وفي عام ١٢٩٣ه -١٨٧٦م طرأ تغير على بعض الأعضاء وبقي الرئيس كما هو[٣٠] :

جدول ٥: المجلس البلدي ١٢٩٣ه- ١٨٧٦م.

رئيس المجلس	الأعضاء	
عبد اللطيف أفندي	أحمد أفندي	سليم أفندي
	علاء الدين أفندي	اصطفان أفندي
	طبيب: أحمد أفندي	خضر أفندي
	عبد الرحيم أفندي	
	الكاتب وأمين الصندوق: يوسف أفندي	

وفي عام ١٢٩٤ه -١٨٧٧م كان المجلس مكوناً ممن يأتي، وكان برئاسة عبد الفتاح النمر[٣١]:

جدول ٦: المجلس البلدي ١٢٩٤ه- ١٨٧٧م.

رئيس المجلس	الأعضاء	
عبد الفتاح أفندي	أحمد أفندي	سليم أفندي
	علاء الدين أفندي	اصطفان أفندي
	طبيب: أحمد أفندي	خضر أفندي
	عبد الرحيم أفندي	
	الكاتب وأمين الصندوق: يوسف أفندي	

(٣٠) سالنامة ولاية سوريا، ١٢٩٣هـ، ص١٢٢.

(٣١) سالنامة ولاية سوريا، ١٢٩٤هـ، ص ١١٦.

وفي عام ١٢٩٥ه-١٨٧٨مكانت تشكيلة المجلس البلدي كالتالي؛ حيث عاد عبد اللطيف عبد الهادي لرئاسة المجلس البلدي[٣٢]:

جدول ٧: المجلس البلدي ١٢٩٥ه- ١٨٧٨م.

رئيس المجلس	الأعضاء	
عبد اللطيف أفندي	ابراهيم فخر الدين أفندي	بكر أفندي
	عودة أفندي	اصطفان أفندي
	عبد القادر صالح أفندي	خضر أفندي
	المفتش: درويش أفندي	الكاتب: راغب أفندي
	أمين الصندوق: يوسف أفندي	

وفي عام ١٢٩٦ه- ١٨٧٩م كان المجلس مكوناً ممن يأتي، وبقي برئاسة عبد اللطيف عبد الهادي[٣٣]:

جدول ٨: المجلس البلدي ١٢٩٥ه- ١٨٧٨م.

رئيس المجلس	الأعضاء	
عبد اللطيف أفندي	سليمان أفندي	بكر أفندي
	عودة أفندي	اصطفان أفندي
	عبد القادر صالح أفندي	خضر أفندي
	المفتش: درويش أفندي	الكاتب: طاهر أفندي
	أمين الصندوق: درويش أفندي	

(٣٢) سالنامة ولاية سوريا، ١٢٩٥هـ، ص ٨٤.

(٣٣) سالنامة ولاية سوريا، ١٢٩٦هـ، ص٨٧.

وفي عام ١٢٩٧هـ-١٨٨٠م كان المجلس البلدي مكوناً ممن يأتي، وكان برئاسة حسن عبد الهادي[٣٤]:

جدول ٩: المجلس البلدي ١٢٩٥هـ- ١٨٧٨م.

رئيس المجلس	الأعضاء	
حسن عبد الهادي أفندي	علاء الدين أفندي	قاسم أفندي
	ابراهيم أفندي	عبد اللطيف أفندي
	عبداة أفندي	حامد أفندي
	محمد أفندي	الطبيب: أحمد أفندي
	المفتش: محمد أفندي	الكاتب: أحمد أفندي
	الحارس: إبراهيم أفندي	إسماعيل آغا
	أمين الصندوق: درويش أفندي	

وفي عام ١٢٩٨هـ -١٨٨١م كان المجلس مكوناً ممن يأتي، وكان أيضاً برئاسة حسن عبد الهادي[٣٥]:

جدول ١٠: المجلس البلدي ١٢٩٨هـ- ١٨٨١م.

	الأعضاء	رئيس المجلس
قاسم أفندي	علاء الدين أفندي	حسن عبد الهادي أفندي
عبد اللطيف أفندي	ابراهيم أفندي	
حامد أفندي	داود أفندي	
الطبيب: أحمد أفندي	محمد أفندي	
الكاتب: أحمد أفندي	المفتش: محمد أفندي	
ديكري: سعيد آغا	الجاويش: إبراهيم أفندي	
	أمين الصندوق: اندراوس أفندي	

(٣٤) سالنامة ولاية سوريا، ١٢٩٧هـ، ص ٢١٢.

(٣٥) سالنامة ولاية سوريا، ١٢٩٨هـ، ص٢١٦.

وفي عام ١٢٩٩ه -١٨٨٢م كان المجلس مكوناً ممن يأتي، وبقي برئاسة حسن عبد الهادي[٣٦]:

جدول ١١: المجلس البلدي ١٢٩٨ه- ١٨٨١م.

رئيس المجلس	الأعضاء	
حسن عبد الهادي أفندي	علاء الدين أفندي	قاسم أفندي
	ابراهيم أفندي	الشيخ نعمان أفندي
	داود أفندي	حامد أفندي
	حسن أفندي	الطبيب: أحمد أفندي
	المفتش: محمد أفندي	الكاتب: أحمد أفندي
	الحارس: إبراهيم آغا	سعيد آغا
	أمين الصندوق: اندراوس أفندي	

وفي عام ١٣٠٠ ه -١٨٨٣م كان المجلس مكوناً ممن يأتي، وظل حسن عبد الهادي رئيساً[٣٧]:

جدول ١٢: المجلس البلدي ١٣٠٠ه- ١٨٨٣م.

رئيس المجلس	الأعضاء	
حسن عبد الهادي أفندي	علاء الدين أفندي زيد	قاسم أفندي
	ابراهيم أفندي	الشيخ نعمان أفندي
	عارف أفندي	حامد أفندي
	يوسف أفندي	الطبيب: أحمد أفندي
	المفتش: محمد عزت أفندي	الكاتب: أحمد أفندي
	الجاوش: ابراهيم آغا	الحارس: سعيد آغا
	أمين الصندوق: حسن أفندي	

(٣٦) سالنامة ولاية سوريا، ١٢٩٩هـ، ص٢٣٩.

(٣٧) سالنامة ولاية سوريا، ١٣٠٠هـ، ٢٣٨.

وفي عام ١٣٠١ه -١٨٨٤م كان المجلس مكوناً ممن يأتي، وظل حسن عبد الهادي رئيساً له[٣٨]:

جدول ١٣: المجلس البلدي ١٣٠١ه- ١٨٨٤م.

	الأعضاء	رئيس المجلس
قاسم أفندي	علاء الدين أفندي زيد	حسن عبد الهادي أفندي
الشيخ نعمان أفندي	ابراهيم أفندي	
حامد أفندي	عارف أفندي	
الطبيب: أحمد أفندي	يوسف أفندي	
الكاتب: أحمد أفندي	أمين الصندوق: حسين أفندي	
	المفتش: محمد عزت أفندي	

وفي عام ١٣٠٢ه -١٨٨٥م كان المجلس البلدي مكوناً ممن يأتي، وظل حسن عبد الهادي رئيساً[٣٩]:

جدول ١٤: المجلس البلدي ١٣٠٢ه- ١٨٨٥م.

	الأعضاء	رئيس المجلس
قاسم أفندي	علاء الدين أفندي زيد	حسن عبد الهادي أفندي
الشيخ نعمان أفندي	ابراهيم أفندي	
حامد أفندي	عارف أفندي	
الطبيب: أحمد أفندي	يوسف أفندي	
الكاتب: أحمد أفندي	أمين الصندق: اندراوس أفندي	

(٣٨) سالنامة ولاية سوريا، ١٣٠١هـ، ص١٨٥.

(٣٩) سالنامة ولاية سوريا، ١٣٠٢هـ، ص١٧٦.

وفي عام ١٣٠٣ه -١٨٨٦م كان المجلس البلدي يتشكل كما يلي برئاسة شريف طوقان[٤٠]:

جدول ١٥: المجلس البلدي ١٣٠٣ه- ١٨٨٦م.

	الأعضاء	رئيس المجلس
ابراهيم أفندي	علاء الدين أفندي زيد	شريف طوقان بك
محمد أفندي	إسماعيل بك	
يوسف أفندي	عارف أفندي	
الطبيب: ابراهيم أفندي	الكاتب: أحمد أفندي	
	أمين الصندوق: سليم أفندي	

وفي عام ١٣١١ه-١٨٩٣م كان المجلس البلدي على الآتي، وكان عبد اللطيف عبد الهادي رئيساً له[٤١]:

جدول ١٦: المجلس البلدي ١٣١١ه- ١٨٩٣م.

رئيس المجلس	الأعضاء	
عبد اللطيف أفندي	عبد السلام الحنبلي أفندي	إسماعيل الشافعي بك
	حسن المنياوي أفندي	الطبيب: محرم أفندي
	محمد الشرابي أفندي	محمد قناديلو أفندي
	الكاتب: أحمد عتمة أفندي	عثمان السايح أفندي
	أمين الصندوق: أمين كاملي أفندي	المفتش: محمد فيتاني أفندي

(٤٠) سالنامة ولاية سوريا، ١٣٠٣هـ، ص ١٦٦.

(٤١) سالنامة ولاية بيروت، ١٣١١هـ، ص١٩٠.

وفي عامي ١٣١٧ه – ١٨٩٩م/ ١٣١٨ه–١٩٠٠م كان المجلس البلدي على النحو الآتي، وبقي عبد اللطيف عبد الهادي رئيساً له[٤٢]:

جدول ١٧ : المجلس البلدي ١٣١٧ه– ١٨٩٩م.

	الأعضاء	رئيس المجلس
قاسم آغا النمر	الشيخ علاء الدين أفندي	عبد اللطيف أفندي
خضر أفندي الخماش	إسماعيل بك الشافعي	
الطبيب: ارتين أفندي	محمد شرابي أفندي	
	الكاتب وأمين الصندوق: أحمد أفندي	

وفي عام ١٣١٩ه –١٩٠١م كانت البلدية على النحو الآتي، وبقيت برئاسة عبد اللطيف أفندي[٤٣]:

جدول ١٨ : المجلس البلدي ١٣١٩ه– ١٩٠١م.

رئيس المجلس	الأعضاء	
عبد اللطيف أفندي	الشيخ علاء الدين أفندي	قاسم آغا النمر
	إسماعيل بك الشافعي	سليمان الصمادي أفندي
	محمد شرابي أفندي	سليم الجوهري أفندي
	عبد السلام الحنبلي أفندي	الطبيب: محرم أفندي
	الكاتب وأمين الصندوق: أحمد أفندي	

(٤٢) سالنامة ولاية بيروت، ١٣١٧هـ، ص ٢١٣.

(٤٣) سالنامة ولاية بيروت، ١٣١٩هـ، ص١٦٩–١٧٠.

وفي عام ١٣٢٢ه-١٩٠٤م كان المجلس البلدي على النحو الآتي، وكان برئاسة توفيق حماد[٤٤]:

جدول ١٩: المجلس البلدي ١٣٢٢ه- ١٩٠٤م.

رئيس المجلس	الأعضاء	
توفيق حماد أفندي	محمد شرابي أفندي	رامز النمر آغا
	تقي الدين عرفات أفندي	عبد الحليم كنعان أفندي
	الكاتب: أحمد أفندي	طاهر كمال أفندي
	الكاتب وأمين الصندوق: محمد سعيد أفندي	

وفي عام ١٣٢٤ه-١٩٠٦م كان المجلس البلد على النحو السابق برئاسة توفيق حماد[٤٥]:

جدول ٢٠: المجلس البلدي ١٣٢٤ه- ١٩٠٦م.

	الأعضاء	رئيس المجلس
الشيخ علاء الدين أفندي	محمد شرابي أفندي	توفيق حماد أفندي
طاهر كمال أفندي	محي الدين أفندي	
الطبيب: نشأت أفندي	الكاتب: أحمد أفندي	
	الكاتب وأمين الصندوق: محمد سعيد أفندي	

(٤٤) سالنامة ولاية بيروت، ١٣٢٢هـ، ص ٢٢٩.

(٤٥) سالنامة ولاية بيروت، ١٣٢٤هـ، ص٣٣٢.

وفي عام ١٣٢٦هـ -١٩٠٨ كان المجلس على النحو الآتي، وظل تحت رئاسة توفيق حماد[٤٦]:

جدول ٢١: المجلس البلدي ١٣٢٦هـ- ١٩٠٨م.

رئيس المجلس	الأعضاء	
توفيق حماد أفندي	محمد شرابي أفندي	الشيخ علاء الدين أفندي
	محي الدين أفندي	طاهر كمال أفندي
	الكاتب: أحمد أفندي	الطبيب: نشأت أفندي
	أمين الصندوق: سعيد أفندي	المفتش: محمد أفندي

وفي عام ١٩٠٨م عين محمد عبده، الذي أعفي من منصبه[٤٧]،وفي عام ١٣٢٨هـ ١٩١٠م كان المجلس البلدي برئاسة عبد اللطيف عبد الهادي[٤٨]، وفي عام ١٣٣٠هـ ١٩١٢م الى ١٣٣١هـ ١٩١٢م كان رئيس المجلس البلدي حيدر علي طوقان[٤٩]، وعضوية محمد نور الدين العكر[٥٠]، وفي عام ١٩١٢م كان كمال الدين عرفات، وفي عام ١٩١٣م يوسف التميمي، ومن عام ١٩١٣م الى عام ١٩١٥م كان حسن حماد، ومن عام ١٩١٥م الى عام ١٩١٨م، بداية الحرب العالمية الأولى الى عام ١٩١٨م، عدد من الشخصيات تم تعيينهم بدون انتخابات، وهم "بشير الشرابي، وكمال الدين عرفات، واحمد مختار القباني، ويوسف التميمي، وحيدر طوقان، ونمر حماد، وسليمان الصمادي، وطاهر الحجاوي"[٥١].

(٤٦) سالنامة ولاية بيروت، ١٣٢٦هـ، ص٣٣٥.

(٤٧) نابلس دفتر، ٤/٢٧، ١٣٢٤هـ/١٩٠٨م، ص١٦١.

(٤٨) سجلات المحكمة الشرعية، نابلس، سجل ٤٣ ب، ١٣٢٨هـ، ص ١٣.

(٤٩) سجلات المحكمة الشرعية، نابلس، سجل ٤٩، ص١٨٨.

(٥٠) سجلات المحكمة الشرعية، نابلس، سجل ٤٦، ص ٤٣.

(٥١) التمام، بلدية، ص٤٠.

أقسام بلدية نابلس

وكانت أعمال البلدية تتمحور حول:

١. الهندسة والاعمار

كانت تقوم بشق الطرق الجديدة[٥٢]، وتوسيع القائم منها[٥٣]، وإذا لزم الأمر كانت تهدم البيوت والمحلات من أجل التوسعة، وكان يتم تعويض أصحاب البيوت في كثير من الأحيان[٥٤]، وقد وسعت طريق عين حسين، وهدمت بعض الدكاكين من أجل توسعة الشارع، وعوضت المتضررين من التجار، كما وسعت طريق السوق الشرقي وفتحت طريقاً من نابلس الى قرية رفيديا، بعرض ثلاثة أمتار، ومنعت التعدي عليها، حيث كانت البلدية تفرض غرامات على من يعتدي، على الطريق إما بالبناء[٥٥] أو بوضع بسطات[٥٦]، أو بربط الحيوانات[٥٧]، وكانت تزيل التعديات على الطرق حيث قامت بإزالة درج بني في الطريق في محلة الغرب[٥٨]، ومراقبة البناء وعدم السماح لأحد بالبناء إلا بعد أن يحصل على رخصة من البلدية[٥٩]، وفرض غرامات على من يخالف، وألزمتهم بوقف البناء[٦٠]، كما قامت بهدم بعض بيوت المخالفين[٦١]، وألزمت البنائين بعدم البناء لأي شخص إلا بعد ان يأخذ الإذن من البلدية[٦٢]، وفرضت الغرامة على من يباشر البناء بدون إذن مسبق[٦٣]، كما كانت البلدية تهدم البيوت المعرضة للسقوط، والتي تشكل خطراً على الأهالي[٦٤] وكانت تساعد في ترميم البيوت المتشققة للفقراء الذين لا يستطيعون إصلاح بيوتهم[٦٥]، وإعادة بناء جدر معرضة للسقوط يشكل بقاؤها خطراً على السكان؛ حيث قامت ببناء جدارين في حارة الشويترة، كانا يشكلان خطرا على حياة الناس، ورواد القهوة[٦٦].

---

(٥٢) نابلس دفتر، ٩/٢٧، ١٣٣٠ه/١٩١٤م، ص١٣٠.
(٥٣) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣ه/١٩٠٧م، ص٣٢.
(٥٤) نابلس دفتر، ٤/٢٧، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص٢٠٨.
(٥٥) نابلس دفتر، ٢/٢٧، ١٣١٩ه/١٩٠٣م، ص٤.
(٥٦) نابلس دفتر،١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٤.
(٥٧) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٢.
(٥٨) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه-١٨٩٢م، ص٤.
(٥٩) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٤١.
(٦٠) نابلس دفتر، ٤/٢٧، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص٨٨.
(٦١) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣ه/١٩٠٧م، ص٢٨.
(٦٢) نابلس دفتر،٤/٢٧، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص٩
(٦٣) نابلس دفتر، ٦/٢٧، ١٣٢٥ه/١٩٠٩م، ص٥٤.
(٦٤) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٥٢.
(٦٥) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣ه/١٩٠٧م، ص١٢٠.
(٦٦) نابلس دفتر، ٤/٢٧، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص٢٦.

استحدثت البلدية قسم الهندسة، الذي كان يشرف على النشاط العمراني في المدينة[٦٧]، فعينت "أمين العقاد" مدير مكتب دار المعلمين في نابلس -الذي كانت لديه خبرة في أمور البناء- مهندسا للبلدية في عام(١٣٣٠هـ/١٩١٤م)[٦٨]، فقام بعمل خريطة للبلدية ووسعت طرق المدينة وفق هذه الخريطة[٦٩].

قامت بتوسعة الطرق الى (٣) أمتار من أجل مرور العربات[٧٠]، وإنارة شوارع المدينة، وتشكيل إدارة من أجل إنارة الأحياء والشوارع[٧١] وقد بلغ عدد القناديل الموضوعة في مدينة نابلس (١٨٦) قنديلاً، وضعت في أماكن مختلفة[٧٢]، كما قامت البلدية بالتعاقد مع مقاولين من أجل الإنارة[٧٣] يتولون تركيب القناديل الجديدة وتغيير الكاز والزيت وإصلاح القناديل التالفة[٧٤]، وكان هناك مأمورٌ في كل محلة يتولى أمور الإنارة فيها[٧٥].

وقامت البلدية بتعمير بعض المساجد التي تحتاج للتعمير[٧٦]، وإصلاح عيون المياه وتغطيتها ومنع إلقاء القاذورات فيها[٧٧]، وتعمير مكتب الرشدية[٧٨]، والمكتب الابتدائي الكبير[٧٩]، وتعمير مقام يوسف والكشف عليه [٨٠]،وإعمار عين الأزرق[٨١] في المدينة المنورة، والتكفل بكافة المصاريف اللازمة[٨٢].

تلقت البلدية مناقصة من "فيكتور شميلفي" عام(١٣٣٣هـ/١٩١٤م) من أجل تمديد الكهرباء إلى مدينة نابلس[٨٣]، ولقد وافقت البلدية على المشروع الذي يكلف (٣٥٠٠)

(٦٧) نابلس دفتر، ٩/٢٧، ١٣٣٠ه/١٩١٤م، ص٦٤.

(٦٨) نابلس دفتر، ٩/٢٧، ١٣٣٠ه/١٩١٤م، ص٦١.

(٦٩) نابلس دفتر، ٩/٢٧، ١٣٣٠ه/١٩١٤م، ص٢٠٧.

(٧٠) نابلس دفتر، ٩/٢٧، ١٣٣٠ه/١٩١٤م، ص١٣٠.

(٧١) نابلس دفتر، ٢/٢٧، ١٣١٩ه/١٩٠٣م، ص٨٩.

(٧٢) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٣٢ه/١٩٠٧م، ص٦٨.

(٧٣) نابلس دفتر، ٦/٢٧، ١٣٢٥ه/١٩٠٩م، ص٢٧٩.

(٧٤) نابلس دفتر، ٩/٢٧، ١٣٣٠ه/١٩١٤م، ص٨.

(٧٥) نابلس دفتر،٧/٢٧، ١٣٢٧ه/ ١٩١١م، ص٢٠٨.

(٧٦) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٤٦.

(٧٧) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٣١.

(٧٨) نابلس دفتر،١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٦١.

(٧٩) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣ه/١٩٠٧م، ص١٥٣.

(٨٠) نابلس دفتر، ٤/٢٧، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص٢٣٤.

(٨١) عين الأزرق: قناة مائية تجري تحت الأرض، أنشأها مروان بن الحكم عندما كان أميرا على المدينة المنورة بأمر الخليفة معاوية بن أبي سفيان وكان مروان أزرق العينين فنسبت القناة إليه، وأصلها من بئر الأزرق، وهي بئر واسعة الأرجاء عذبة الماء في بستان قرب مسجد قباء وتسير القناة شمالا نحو المدينة بمجرى مغطى، له فتحات يسقى منها تسمى الديول. عكاظ،
http://www.okaz.com.sa/new/Issues/20120405/Con20120405491866.htm

(٨٢) نابلس دفتر،٤/٢٧، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص٨٧.

(٨٣) نابلس دفتر، ٩/٢٧، ١٣٣٠ه/١٩١٤م، ص٥٨.

ليرة فرنسي ثمن محركي كهرباء وسائر الأدوات اللازمة له، وبسبب الأزمة المالية الخانقة التي كانت تعاني منها البلدية تم تقسيم المبلغ إلى أربعة أقساط، القسط الأول يبلغ (١٦٠٠) ليرة، تقوم البلدية باستدانة القسط الاول من أحد البنوك، أو أحد التجار، ويتم دفع القسط الثاني عند وصول الآلات من ميناء حيفا، والنصف المتبقي يقسط على ثمانية أقساط في مدة أربعة وعشرين شهراً اعتباراً من تاريخ بدء تشغيل المحطة، ولم ينفذ بسبب الحرب العالمية الأولى[٨٤].

٢. الصحة

اهتمت البلدية بالصحة العامة للسكان، حيث منعت السكان من إلقاء النفايات في الشوارع والأزقة وخارج المحلات، وفرضت غرامة على المخالفين[٨٥]، كما ألزمت القصابين بذبح الحيوانات في السلخانة (المسلخ) خارج المدينة[٨٦]، وفرضت غرامة مالية على من يذبح الحيوانات داخل المدينة[٨٧]، وعلى من يلقي الحيوانات النافقة دون أن يدفنها[٨٨]، وفرضت على الباعة تغطية اللحمة واللبن بالقماش من الذباب[٨٩]، كما عينت شخصاً لديه خبرة ومعرفة من أجل الكشف على الحيوانات قبل ذبحها وفحص الكرش[٩٠]، وكانت تتلف البضائع المنتهية الصلاحية من المحلات التجارية بعد فحصها من قبل طبيب البلدية[٩١]، ومنع طبيب البلدية ذبح الحيوانات الضعيفة والمريضة[٩٢]، وحذو الخيول داخل طرق المدينة لأنه يشكل مكاره صحية[٩٣]، كما طلبت من أصحاب المصابن عمل أماكن للطهارة وقضاء الحاجة[٩٤]، وعينت البلدية مفتشاً يقوم بالتفتيش والمراقبة وفرض غرامة على المخالفين[٩٥]، وأصدرت البلدية في عام (١٣٠٨ه/١٨٩٢م) قانوناً للصحة يحتوي على (١٨) مادة يراعي الأوضاع الصحية العامة[٩٦]،داخل المدينة ويتكون من ثمانية عشر بنداً وهي:

(٨٤) نابلس دفتر، ٩/٢٧، ١٣٣٠ه/١٩١٤م، ص١١١.

(٨٥) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٥.

(٨٦) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٧.

(٨٧) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص١٨.

(٨٨) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٦.

(٨٩) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٥.

(٩٠) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص١٣٨.

(٩١) نابلس دفتر، ٦/٢٧، ١٣٢٥ه/١٩٠٩م، ص٢٤.

(٩٢) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣ه/١٩٠٧م، ص٢٠٥.

(٩٣) نابلس دفتر، ٩/٢٧، ١٣٣٠ه/١٩١٤م، ص٦٠.

(٩٤) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٦٢.

(٩٥) نابلس دفتر،١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٢.

(٩٦) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٥.

١. زيادة عدد العاملين في النظافة، وزيادة عدد الحمير التي تنقل النفايات إلى عدد (١٥)؛ وكل حمار يعمل عليه شخصان، كما عينت أربعة عمال نظافة للشوارع.

٢. منع إلقاء النفايات أمام البيوت في النهار، وإخراجها ليلاً ومخالفة من يفعل ذلك.

٣. إلزام بائعي اللحم بتغطية اللحوم من الذباب وعدم وضع اللحمة خارج المحل.

٤. تغطية الحلويات واللبنة.

٥. الطلب من المختارين تحذير الأهالي من وضع أطفالهم الأوساخ أمام المحلات.

٦. التعميم على بائعي الحليب واللبن بأن يطلبوا من الفلاحين غسل الأواني التي يتم وضع الحليب واللبنة فيها.

٧. التنبيه على الطباخين، والكبابجية، وبائعي الكنافة بلزوم غسل الأواني قبل الاستعمال.

٨. إلزام اللحامين بذبح الحيوانات داخل مسلخ البلدية.

٩. نقل جلود الأغنام غير المدبوغة إلى محلات الدباغة الموجودة خارج البلدة.

١٠. منع الأساكفة من وضع جلود الجمال في الطريق أمام محلاتهم.

١١. إلزام أصحاب الحيوانات الميتة بدفنها خارج البلدة وفرض غرامة على المخالفين.

١٢. منع ربط الحيوانات خارج المحلات وفي الطرق.

١٣. إلزام بائعي الكباب بوضع مداخن مرتفعة من أجل الدخان.

١٤. منع البائعين من وضع بسطات خارج المحلات.

١٥. منع الغرباء من وضع كراسي للجلوس في الطرق.

١٦. إلزام اصحاب الحمامات بتنظيفها جيداً ومنع دخول الاشخاص إلى خزانات المياه وتنظيفها.

١٧. فرض غرامة على من يلقي قشر البطيخ خارج دكانه.

١٨. فرض غرامة على من يلقي قشور الصبر في السوق الشرقي والغربي[٩٧].

(٩٧) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨هـ/١٨٩٢م، ص٥.

قامت البلدية بإخراج النفايات من المدينة، فتعاقدت مع متعهدين للتنظيفات يكون كل واحد منهم مسئولاً عن محلة من محلات نابلس[٩٨]، وقد خصصت البلدية (١٥) حمّاراً من أجل نقل النفايات الى خارج البلدية مقابل أجرة شهرية تبلغ (١٢٠) غرشاً[١٠٠]، وقد طلبت البلدية من السكان إخراج نفاياتهم من البيوت والمحلات في الصباح الباكر، أو في الليل[١٠١]، وقد كانت البلدية تشدد على الاهتمام بالنظافة أثناء انتشار الأوبئة والأمراض، فعندما تفشت الكوليرا في مدينة يافا زادت البلدية من عدد عمال النظافة خوفاً من تفشي المرض في المدينة[١٠٢]،وخصصت ساحات خارج المدينة من أجل بيع الفحم والبطيخ والعنب والقطين خوفاً من دخول الحيوانات، وقامت بمراقبة الأسواق وفرضت تسعيرة موحدة لبعض السلع الأساسية[١٠٣] ومعاقبة المخالفين، كما كانت تراقب الموازين وتلزم التجار بالالتزام في الوزن[١٠٤] وكانت البلدية تعاقب وتفرض الغرامة على من يتلاعب بالأوزان والمكاييل[١٠٥].

كما عملت على تطعيم الأطفال ضد الجدري وشراء الطعم من بيروت[١٠٦]، وتعيين محمد صائب مأموراً لتلقيح الجدري[١٠٧] وشراء الأدوات التي يحتاجها التطعيم[١٠٨] وإلزام الأطفال بالتلقيح[١٠٩] وفرض غرامة على الممتنعين، كما قامت البلدية بإجراء التطعيم في القرى التابعة للقضاء والأقضية التابعة لأقضية جنين وطولكرم.

٣. مساعدة الفقراء

وقامت بتخصيص مخصصات شهرية للفقراء والأيتام[١١٠] حيث كان في البلدية قائمة لأسماء من تساعدهم البلدية براتب شهري يبلغ (٣٠) قرشاً[١١١]، كما كانت

(٩٨) نابلس دفتر، ٤/٢٧، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص٢٧٩.
(٩٩) نابلس دفتر، ٧/٢٧، ١٣٢٧ه/١٩١١م، ص٢٠٨.
(١٠٠) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٤.
(١٠١) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٥.
(١٠٢) نابلس دفتر،٧/٢٧، ١٣٢٧ه/١٩١١م، ص٢٥٥.
(١٠٣) نابلس دفتر، ٤/٢٧، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص٧٩.
(١٠٤) نابلس دفتر،٤/٢٧، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص١٧٦.
(١٠٥) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٦٦.
(١٠٦) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٥٤.
(١٠٧) نابلس دفتر، ٢/٢٧، ١٣١٩ه/١٩٠٣م، ص٣٦.
(١٠٨) نابلس دفتر، ٢/٢٧، ١٣١٩ه/١٩٠٣م، ص١٠.
(١٠٩) نابلس دفتر، ٦/٢٧، ١٣٢٥ه/١٩٠٩م، ص٧٠.
(١١٠) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص٣.
(١١١) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣ه/١٩٠٧م، ص٦٧.

البلدية تساعد الغرباء الذين تقطعت بهم السبل في نابلس، فساعدت البعض مادياً[١١٢]، وفي بعض الأحيان كانت تشتري لهم دواب من أجل السفر عليها[١١٣]، حيث قدمت المساعدة إلى أشخاص من المدينة المنورة[١١٤] وتونس[١١٥] واستانبول[١١٦] وطرابلس الغرب[١١٧] وطرابلس الشام[١١٨] وقونية[١١٩] والهند[١٢٠]، وملاطية[١٢١]، وإسكندرونة [١٢٢]والسلط[١٢٣]، واليمن[١٢٤]، ومكة المكرمة[١٢٥]، وحلب[١٢٦]، وبيروت[١٢٧]، وأزمير[١٢٨]، ومصر، والمنصورة[١٢٩]، كما كانت تتبرع من أجل تكفين ودفن بعض الغرباء الذين يتوفون في المدينة[١٣٠].

٤. التعليم:

قامت البلدية بمساعدة مكتب المعارف الموجود في المدينة بالعمل على تطوير العملية التعليمية حيث عمرت المكتب الابتدائي الكبير، وعملت صيانة شامله له فبدلت الزجاج ودهنت الجدران وأصلحت الأرضية[١٣١] وعمرت المكتب الرشدي، وعملت على إنشاء مكتب للصنائع في حارة الشويترة[١٣٢]، وساعدت بعض الطلاب على الدراسة في إسطنبول وبيروت[١٣٣]، ووفرت بعض الأدوات الخاصة بالعملية التعليمية.

(١١٢) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٧م، ص٥٢.

(١١٣) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٧م، ص١١٩.

(١١٤) نابلس دفتر، ٣/١٣٢٣/٢٧هـ/١٩٠٧م، ص٧٧.

(١١٥) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٧م، ص٦٠.

(١١٦) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٧م، ص٦٤.

(١١٧) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٧م، ص١٣٠.

(١١٨) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٧م، ص٧١.

(١١٩) قونية: مدينة تركية تقع في هضبة الاناضول وهي عاصمة سلاجقة الروم يقوم فيها قبر المتصوف الشهير، جلال الدين الرومي. وقونية اليوم من مدن الجمهورية التركية.الحميري، الروض، ص٤٨٤. نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٧م، ص١٥٠.

(١٢٠) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٧م، ص١١٩.

(١٢١) ملاطية: مدينة تركية تقع في هضبة الاناضول بالقرب من نهر الفرات، يبلغ تعداد سكانها حوالي ٣٨١،٠٨١ نسمة وهم خليط من الكرد والترك.القزويني، اثار، ج١، ص٢٣٢. الحميري، الروض، ج١، ص٥٤٥. نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٧م، ص١٢٨.

(١٢٢) اسكندرونة: مدينة تركية تقع على خليج الاسكندرون القائم على الساحل الشرقي للبحر الأبيض المتوسط.الحميري، الروض، ص٥٦. نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٧م، ص١٦٥.

(١٢٣) نابلس دفتر، ٤/٢٧، ١٣٢٤هـ/١٩٠٨م، ص١٨.

(١٢٤) نابلس دفتر، ٤/٢٧، ١٣٢٤هـ/١٩٠٨م، ص٤٨.

(١٢٥) نابلس دفتر،٤/٢٧، ١٣٢٤هـ/١٩٠٨م، ص٣٧.

(١٢٦) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٧م، ص١٢١.

(١٢٧) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٧م، ص٩٢.

(١٢٨) إزمير: ميناء تركيا الرئيسي على البحر الابيض المتوسط وقد احتلها الجيش اليوناني خلال الحرب العالمية الاولى ولهذا دمرت اثناء حرب الاستقلال التركي في عام ١٩٢٤م. نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٧م، ص٦٣. ديورانت، قصة، ج٦، ص٢٧٣.

(١٢٩) نابلس دفتر،٣/٢٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٧م، ص٧٤.

(١٣٠) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨هـ/١٨٩٢م، ص٩.

(١٣١) نابلس دفتر، ٣/٢٧، ١٣٢٣هـ/١٩٠٧م، ص ١٥٣.

(١٣٢) نابلس دفتر، ٤/٢٧، ١٣٢٤هـ/١٩٠٨م، ص ٢٤٨.

(١٣٣) نابلس دفتر، ٤/٢٧، ١٣٢٤هـ/١٩٠٨م، ص ١٣.

٥. الثقافة والترفيه

قامت البلدية بالاشتراك في عدد من المجلات والجرائد، مثل جريدة الإخاء العثمانية[١٣٤]، وبيروت الرسمية، والإقبال التي تصدر في إستانبول[١٣٥]، والجريدة الإسلامية العلمية[١٣٦]، وجريدة الصباح التركية[١٣٧]، كما منعت بيع المصاحف الواردة من روسيا لأنها تحتوي على أخطاء[١٣٨].

وشاركت في الاحتفالات الرسمية، كعيد جلوس السلطان[١٣٩]، وتخصيص مصاريف للمشاركة في الاحتفال بجلوس السلطان محمد رشاد[١٤٠]، وخصصت البلدية الأموال اللازمة من أجل عمل (١٠٠) بيرق وشراء الألعاب للاحتفال بيوم نشر الدستور وهو يوم إعادة العمل بالدستور في أواخر أيام السلطان "عبد الحميد الثاني" في عام(١٣٢٦هـ/١٩٠٨م)[١٤١].

أنشأت حديقة البلدية (الرشادية) في محلة الشويترة، وقامت بشراء أشتال وشجر من يافا من أجل زراعة الحديقة[١٤٢]، والتي لاتزال بعض هذه الاشجار قائمة، كما قامت بتبليط الحديقة[١٤٣]، وإنشاء بركة مياه[١٤٤]، وتوصيل المياه إليها عن طريق مواسير حديديه[١٤٥]، كما قامت بشراء الأدوات اللازمة من أجل تعمير الحديقة وشراء قوارير فخار لوضعها في الحديقة[١٤٦]، والإشراف على القايق[١٤٧] الموجود على نهر الشريعة، وتكليف ملتزم يقوم بتحصيل رسوم على الأفراد والحيوانات والبضائع[١٤٨].

---

(١٣٤) نابلس دفتر، ٢٧/٩، ١٣٣٠ه/١٩١٤م، ص٨.

(١٣٥) نابلس دفتر، ٢٧/٣، ١٣٢٣ه/١٩٠٧م، ص٢.

(١٣٦) نابلس دفتر، ٢٧/٤، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص٥٠.

(١٣٧) نابلس دفتر، ٢٧/٤، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص٦٤.

(١٣٨) نابلس دفتر، ٢٧/٦، ١٣٢٥ه/١٩٠٩م، ص ٨.

(١٣٩) نابلس دفتر، ٢٧/٤، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص١٣٦.

(١٤٠) نابلس دفتر، ٢٧/٥، ١٣٢٥ه/١٩٠٩م، ص ٥٠.

(١٤١) نابلس دفتر، ٢٧/٥، ١٣٢٥ه/١٩٠٩م، ص١١٦.

(١٤٢) نابلس دفتر، ٢٧/٧، ١٣٢٧ه/١٩١١م، ص١٣٢.

(١٤٣) نابلس دفتر، ٢٧/٧، ١٣٢٧ه/١٩١١م، ص٣٥.

(١٤٤) نابلس دفتر، ٢٧/٧، ١٣٢٧ه/١٩١١م، ص٩٥.

(١٤٥) نابلس دفتر، ٢٧/٧، ١٣٢٧ه/١٩١١م، ص١٥٥.

(١٤٦) نابلس دفتر، ٢٧/٧، ١٣٢٧ه/١٩١١م، ص١٥٩.

(١٤٧) القايق: لوح خشبي كبير مربوط بالحبل من ناحية ضفتي الوادي ويسحب ويجر حسب حركة المرور حيث يقف عليه المارين على هيئة الجسر من وإلى البر.الخطيب، معجم، ص٣٤٥-٣٤٦.

(١٤٨) نابلس دفتر، ٢٧/٣، ١٣٢٧ه/١٩١١م، ص٤٧.

٦. أعمال متنوعة

وقامت بتعيين حراس من أجل حراسة الأسواق، وتحصيل رواتبهم من قبل التجار[١٤٩]، ويراعى فيهم الصدق والأمانة[١٥٠]، وخصصت ساحات خارج البلد[١٥١] من أجل بيع البطيخ وفرض رسوم على متعهد تختاره البلدية عن طريق المناقصة[١٥٢]، وساحات للعنب[١٥٣] والفحم[١٥٤] والقطين[١٥٥] وتعيين متعهدين وأخذ رسوم منهم، وتحديد سعر المواصلات بين نابلس وبقية المدن الأخرى والمناطق وإلزام أصحاب الدواب والعربات بالأجرة[١٥٦].ويبين الجدول التالي المناطق التي كانت تصلها العربات والأجرة التي حددتها البلدية لأصحاب العربات[١٥٧]:

أسعار المواصلات بين نابلس وما حولها عام (١٣٢٨ه/١٩١٤م)	
المكان	الاجرة بالقرش
نابلس- عنبتا	٧,٥
نابلس- طولكرم	٩,٥
نابلس- قاقون	١٤,٢٥
نابلس-قلقيلية وجلجولية	١٥
نابلس- باقة	٢٣,٢٣
نابلس- دير شرف	٥
نابلس-السيلة	٩,٥
نابلس- جنين	١٩
نابلس- العفولة	٢٣,٣٠
نابلس- حوارة	٥
نابلس- خان اللبن	٩,٥
نابس- عين سنيا	١٥
نابلس- البيرة	١٩
نابلس- القدس	٣٠,٢٣
نابلس- السرايا	٩,٥ للعربة الواحدة

(١٤٩) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص١٩.
(١٥٠) نابلس دفتر، ١/٢٧، ١٣٠٨ه/١٨٩٢م، ص١٨٦.
(١٥١) نابلس دفتر، ٥/٢٧، ١٣٢٥ه/١٩٠٩م، ص١٣.
(١٥٢) نابلس دفتر، ٤/٢٧، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص٥٣.
(١٥٣) نابلس دفتر، ٤/٢٧، ١٣٢٤ه/١٩٠٨م، ص١٣٢.
(١٥٤) نابلس دفتر، ٥/٢٧، ١٣٢٥ه/١٩٠٩م، ص٧.
(١٥٥) نابلس دفتر، ٥/٢٧، ١٣٢٥ه/١٩٠٩م، ص١٣.
(١٥٦) نابلس دفتر، ٨/٢٧، ١٣٢٨ه/١٩١٢م، ص٢٤٧.
(١٥٧) نابلس دفتر، ٨/٢٧، ١٣٢٨ه/١٩١٤م، ص٢٤٧.

المصادر والمراجع:

أولا: المصادر غير المنشورة.

١. سجلات المحكمة الشرعية نابلس.

٢. نابلس سجل٤٣، (١٣٢٨ه/١٩١٠م-١٣٢٩ه/١٩١١م).

٣. نابلس سجل٤٦، (١٣٣١ه/١٩١٣م-١٣٣٢ه/١٩١٤م).

٤. نابلس سجل٤٩، ١٣٣٤ه/١٩١٦م-١٣٣٦ه/١٩١٨م.

٥. دفاتر بلدية نابلس، النسخة الأصلية في قسم الارشيف، مكتبة بلدية نابلس، نابلس، فلسطين.

٦. نابلس دفتر٢٧/١، (١٣٠٨ه/١٨٩٢م).

٧. نابلس دفتر٢٧/٢، (١٣١٩ه/١٩٠١م).

٨. نابلس دفتر٢٧/٣، (١٣٢٣ه/١٩٠٧م).

٩. نابلس دفتر٢٧/٤، (١٣٢٤ه/١٩٠٨م).

١٠. نابلس دفتر٢٧/٥، (١٣٢٥ه/١٩٠٩م).

١١. نابلس دفتر٢٧/٦، (١٣٢٥ه/١٩٠٩م).

١٢. نابلس دفتر٢٧/٧، (١٣٢٧ه/١٩١١م).

١٣. نابلس دفتر٢٧/٨، ١٣٢٨(ه/١٩١٢م).

١٤. نابلس دفتر٢٧/٩، (١٣٣٠ه/١٩١٤م).

١٥. نابلس دفتر٢٧/١٠، (١٣٣٢ه/١٩١٦م).

١٦. نابلس دفتر٢٧/١١، (١٣٣٣ه/١٩١٧م).

سالنامات الدولة العثمانية:

١. سالنامة ولاية سوريا.

٢. سالنامة ولاية سورية، ع ١٢٨٦، إسطنبول، دار سعادات، ١٨٦٩م.

٣. سالنامة ولاية سورية، ع ١٢٨٨، إسطنبول، دار سعادات،١٨٧١م.

٤. سالنامة ولاية سورية، ع ١٢٩١، إسطنبول، دار سعادات، ١٨٧٤م.

٥. سالنامة ولاية سورية، ع ١٢٩٢، إسطنبول، دار سعادات، ١٨٧٥م.

٦. سالنامة ولاية سورية، ع ١٢٩٣، إسطنبول، دار سعادات،١٨٧٦م.

٧. سالنامة ولاية سورية، ع ١٢٩٤، إسطنبول، دار سعادات، ١٨٧٧م.

٨. سالنامة ولاية سورية، ع ١٢٩٥، إسطنبول، دار سعادات، ١٨٧٨م.

٩. سالنامة ولاية سورية، ع ١٢٩٦، إسطنبول، دار سعادات،١٨٧٩م.

١٠. سالنامة ولاية سورية، ع ١٢٩٧، إسطنبول، دار سعادات، ١٨٨٠م.

١١. سالنامة ولاية سورية، ع ١٢٩٨، إسطنبول، دار سعادات، ١٨٨١م.

١٢. سالنامة ولاية سورية، ع ١٢٩٩، إسطنبول، دار سعادات،١٨٨٢م.

١٣. سالنامة ولاية سورية، ع ١٣٠٠، إسطنبول، دار سعادات، ١٨٨٣م.

١٤. سالنامة ولاية سورية، ع ١٣٠١، إسطنبول، دار سعادات، ١٨٨٤م.

١٥. سالنامة ولاية سورية، ع ١٣٠٢، إسطنبول، دار سعادات، ١٨٨٥م.

١٦. سالنامة ولاية سورية، ع ١٣٠٣، إسطنبول، دار سعادات، ١٨٨٦م.

١٧. سالنامة ولاية سورية، ع ١٣١١، إسطنبول، دار سعادات، ١٨٩٣م.

١٨. سالنامة ولاية بيروت.

١٩. سالنامة ولاية بيروت، ع ١٣١٧، إسطنبول، دار سعادات، ١٨٩٩م.

٢٠. سالنامة ولاية بيروت، ع ١٣١٨، إسطنبول، دار سعادات، ١٩٠٠م.

٢١. سالنامة ولاية بيروت، ع ١٣١٩، إسطنبول، دار سعادات، ١٩٠١م.

٢٢. سالنامة ولاية بيروت، ع ١٣٢٢، إسطنبول، دار سعادات، ١٩٠٤م.

٢٣. سالنامة ولاية بيروت، ع ١٣٢٤، إسطنبول، دار سعادات، ١٩٠٦م.

٢٤. سالنامة ولاية بيروت، ع ١٣٢٦، إسطنبول، دار سعادات، ١٩٠٨م.

ثانياً: المصادر والمراجع المنشورة.

١. (١٣٩٦هـ/١٩٧٦م).

٢. التمام، بشار سعيد، بلدية نابلس في العهد العثماني (١٨٦٩م-١٩١٨م)، مكتبة بلدية نابلس العامة،ب ط، ب ت.

٣. التميمي، محمد رفيق، ومحمد بهجت الكاتب، ولاية بيروت، قسمين، مطبعة الإقبال، بيروت، لبنان، ب.ط، ١٣٣٥هـ/١٩١٤م.

٤. الدباغ، مصطفى مراد، بلادنا فلسطين،١١جزء، دار الهدى، كفر قرع، فلسطين، ط١، ب.ت.

٥. دروزة، محمد عزة، محمد عزة دروزة خمسة وتسعون عاماً في الحياة مذكرات وتسجيلات، جزآن، الملتقى الفكري العربي، القدس، فلسطين، ط٢، (١٤١٣هـ/١٩٩٣م).

٦. الدستور، جزآن، تر نوفل أفندي نعمة الله نوفل، د.ط، المطبعة الأدبية، بيروت لبنان، (١٣٠١هـ/١٨٨٣م).

٧. الراميني، أكرم أحمد، نابلس في القرن التاسع عشر، د.ط، مطابع دار الشعب، عمان، الاردن،

٨. عوض، عبد العزيز محمد، الإدارة العثمانية في ولاية سوريا (١٨٦٤-١٩١٤م)، دار المعارف، د.ن، د.ط، د.ت.

٩. النمر، إحسان نجيب، تاريخ جبل نابلس والبلقاء، ٤اجزاء، ط٢، مطبعة جمعية عمال المطابع التعاونية، نابلس، فلسطين، (١٣٩٥هـ/١٩٧٥م).

الجيش العراقي في نابلس ١٩٣٦م - ١٩٤٨م

د. محمد عبدالرحمن عريف[١]

مقدمة:

سأحاول في دراستي عرض بعض من التعاون العراقي الفلسطيني الذي كان دوماً في خندق النضال، فنجد الكفاح بينهما تشابه وتشارك، وللعراق صورة مشرقة في ذهن ثوار فلسطين، بدأت بالفعل الملموس سنة ١٩٣٦م، حينما أبدى شعب العراق ونظامه الملكي في عهد الملك غازي، تآخيه مع الشعب الفلسطيني، حيث تطوع العراقيون للجهاد في فلسطين، إذ إنهم التحقوا بالقائد العربي (فوزي القاوقجي) الذي كان ضابطاً في الجيش العراقي، واستقال لغرض التطوع، وقيادة المناضلين العرب في فلسطين، وحضروا إلى فلسطين، ورابطوا معه في قرية بلعا، وخاضوا معاً معارك كبيرة[٢].

تطورت الأحداث وصولاً لحرب ١٩٤٨م، لتبقى مقبرة الشهداء في قرية "عسكر البلد"، شرق نابلس، التي تضُم ٢٢٠ شهيداً من أبطال الجيش العراقي الذين سقطوا دفاعاً عن الاراضي العربية خلال حرب فلسطين، ولاسيما في يوم السابع من حزيران/ يونيو سنة ١٩٤٨م وسنة ١٩٤٩م، وهناك مقبرة أخرى تضُم رفات الجيش العراقي في قرية قباطية في جنين التي تضم ٥٦ شهيداً عراقياً سقطوا برصاص العدو الإسرائيلي في أحداث حرب فلسطين.

الحقيقة أنه قبل خوض القوة العراقية القادمة إلى فلسطين معاركها مع اليهود، اتخذت عدداً من المواقع المهمة والمرتفعة نسبياً عن السهل الساحلي الفلسطيني، والواقع أمام ناظريها، وأهمها: مواقع في كفر قاسم، وصوفين، والجبيلات قرب طولكرم، ونصبت في هذه المواقع عدداً من المدافع، حتى تكون سلاحاً مسانداً للمناضلين الفلسطينيين الذين أخذوا على عاتقهم الهجوم على بعض المستعمرات اليهودية، وكان التركيز الأساس في الإسناد الخلفي على سلاح المدفعية.

(١) باحث علمي في جامعة عين شمس

(٢) محمد عبدالرحمن عريف، شهادات عن الجيش العراقي في نابلس إبان النكبة.. بين حقيقة تاريخية ورواية مشوهة. السفير العربي، ١٠ كانون الأول/ ديسمبر ٢٠١٨.
https://www.assafiralarabie.com/%D8%AF-%D9%85%D8%AD%D9%85%D8%AF-%D8%B9%D8%A8%D8%AF%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%AD%D9%85%D9%86-%D8%B9%D8%B1%D9%8A%D9%81-%D8%B4%D9%87%D8%A7%D8%AF%D8%A7%D8%AA-%D8%B9%D9%86-%D8%A7%D9%84%D8%AC%D9%8A%D8%B4/

وفي هذه الدراسة، أحاول أن أظهر بعضاً من سير المعارك، وروايات الذين شاركوا فيها من المناضلين الفلسطينيين، حيث إن قادة الجيش العراقي لم يمتلكوا خطة هجومية عسكرية، بل كانت خطتهم دفاعية وفق خطة وحدود مرسومة أعدت سلفاً، بحيث لا تتجاوز خط سكة الحديد الذي يربط رأس العين- حيفا، ويمر غرب جلجولية، وبيار عدس، وقلقيلية، والطيرة الصعبية، وطولكرم.

نعم لقد تمكنَ الجيش العراقي من دعم القرى العربية، حيث استطاع ارسال الأسلحة والأعتدة عبر عارة، وعرعرة إلى مجاميع المقاتلين العرب الفلسطينيين في قرى (اجزم "كرم مهرال"-عين غزال "عين ايالا"-جبع "جيفاع كرمل") في جنوب حيفا بمعدل جمل إلى جملين اسبوعياً، حيث وصفت هذه القرى عربياً باسم (مثلث الصمود الاسطوري)- كان موقعها الجغرافي على هيئة المثلث بجوار جبل الكرمل-ووصفتها الاذاعة الاسرائيلية آنذاك بإسم (مثلث الرعب) على أثر انتشار القناصة الفلسطينيين على شارع حيفا-تل ابيب (شارع رقم ٤) حتى سقطت القرى الثلاث بمجازر وحشية في أواخر شهر تموز/ يوليو سنة ١٩٤٨م (خلال الهدنة الثانية، وبعد إعلان قيام الدولة الإسرائيلية من جانب واحد بشهرين ونيف، في مساء الرابع عشر من أيار/ مايو سنة ١٩٤٨م)، أثر انكشاف ظهر عين غزال بعد مجزرة الطنطورة المجاورة لها، واستخدام الإسرائيليين الطائرات البريطانية، حيث نقل الجيش العراقي نساء هذه القرى وأطفالها إلى العراق بعد وصولهم إلى جنين من حيفا.

أهداف وأهمية الدراسة:

محاولة العودة لنموذج من وحدة النضال والكفاح التي جمعت الفلسطينيين فقد تواصل اللقاء العربي المشترك بين العراقيين والفلسطينيين في الفترة بين ١٩٣٦م-١٩٤٨م، سواء عبر جنود وقادة جيش الانقاذ، أو من خلال الجيش العراقي الذي حضر قادته وجنوده للدفاع عن فلسطين أمام الغزو الصهيوني في مطلع حزيران/ يونيو، والذين يعود لهم الفضل في حماية المثلث العربي من الرحيل، والسقوط، وقد امتدت جبهة القتال من جنين حتى قرية قولة جنوب كفر قاسم، وهم الذين خاضوا معارك الشرف مع العدو الصهيوني عند مجدل الصادق، وقد شوهدت، فيما بعد، بعض ناقلات الجند والشحن والدبابات التي بقيت في أرض المعركة، كذلك عشرات الأنصاب التي تشير لجنود العدو الصهيوني الذين سقطوا هناك.

بداية قدوم الجيش العراقي إلى فلسطين ١٩٣٠م

جاءت البداية عندما أنهت هدنة مدروس ٣٠ أكتوبر/ تشرين الأول ١٩١٨م الحرب بين بريطانيا والدولة العثمانية، وأصبح العراق بعده كله تحت السيطرة العسكرية البريطانية، وبدأت مرحلة جديدة من مراحل الإدارة البريطانية في العراق، من حيث التخطيط والتنفيذ الإداري، حيث أصبح السر أرنولد ولسون على رأس الجهاز الإداري، بصفته الحاكم المدني العام، ومعه مجموعة من المساعدين الانجليز، يتقلدون رأس الوزارات المختلفة. ولكن سرعان ما ظهر التأزم والتوتر بين العراقيين والفلسطينيين، وحصلت ثورة ١٩٢٠م، التي عمت جميع أنحاء البلاد، وكان سببها الرئيسي سياسة بريطانيا ضد زعماء القبائل بشكل خاص، والعراق بشكل عام[٣].

تلا ذلك قيام مؤسسة البلاط الملكي بين عامي (١٩٢١م- ١٩٣٢م)، وقد بدأت باختيار الأمير فيصل الأول من قبل السر برسي كوكس، والذي رأت فيه بريطانيا أفضل الذين ترشحوا لحكم العراق، واختارته من بين مجموعة من المرشحين، والذي اختير بالتعيين، ووجدت فيه بريطانيا ما يُلبي مصالحها، ويلقى قبولاً من مختلف مذاهب العراق الإسلامية في العراق[٤].

لم يكن العراق، في هذه الفترة، متحرراً من القيود البريطانية إلى عام (١٩٢٥م-١٩٣٠م)، حيث تحسنت مقدرة وكفاءة الحكام الإداريين العراقيين على القيام بواجباتهم من غير رقابة المفتشين الإداريين البريطانيين، وبفعل التطور الإداري، ونضال الشعب العراقي، وقدرته على استيعاب المتغيرات الحديثة، اعترف المجتمع الدولي بالعراق دولة مستقلة، وقبوله عضواً في هيئة الأمم المتحدة عام ١٩٣٢م[٥]. ولم تمنع ظروف التجزئة، رجالات الحركة القومية العربية من اللقاء لبحث أمورهم في المؤتمرات اللاحقة، ومعاودة نشاطهم بتشكيل حركات ذات طابع قومي عربي.

لقد تداعى عددٌ من القوميين العرب للاجتماع والتباحث على هامش المؤتمر الإسلامي المنعقد في مدينة القدس عام ١٩٣١م؛ لبحث القضية الفلسطينية، وقضية الوحدة العربية، والذين حضروا المؤتمر الإسلامي، وممن سبق لهم العمل في الحرب العالمية الأولى، ولكنهم افترقوا عقداً من الزمن، وكان الأعضاء قد وجدوا الفرصة

(٣) أحمد خليف العفيف، التطور الإداري للدولة العراقية، ص٤٠. ص٤٢- ص٤٧.

(٤) أحمد خليف العفيف، التطور الإداري للدولة العراقية، ص٦٣. ٦٤.

(٥) المرجع السابق، ص ٤١٩، ٣٤٧.

سانحة لإعادة نشاط الحركة العربية بعد انشغالها بالقضايا المحلية، وعقد الاجتماع في أواسط كانون الأول/ يناير ١٩٣١م في بيت عوني عبدالهادي، وشهده قرابة خمسين شخصاً، وبعد مداولات اتفقوا على وضع ميثاق قومي عربي يحدد أهداف الحركة العربية، ويجدد نشاطها، والدعوة لعقد مؤتمر عربي عام، وقد بحث الأمر مع الملك فيصل الذي شجع فكرة عقد المؤتمر في بغداد، ووافق فيصل على دعمه، ولكن حالت جملة معوقات دون انعقاده، ومنها النزاع بين الهاشميين والسعوديين، ومعارضه المندوب السامي، ثم عاجل موت فيصل في نهايته.

كانت آمال القوميين العرب معلقة على الملك فيصل، وقد جرت معه لقاءات من قبل قادة حزب الاستقلال في فلسطين، وأعضاء من عصبة العمل القومي في سوريا، والكتلة الوطنية السورية، وطرح فيصل فكرة توحيد الأردن والعراق، وعندما توفي رأى فيه القوميون العرب خسارةً لفلسطين، وللبلاد العربية، والحركة القومية العربية[٦].

لقد قام على تأسيس حزب الاستقلال، في فلسطين، كل من: عوني عبد الهادي، ومحمد عزة دروزة، وصبحي الخضرا، وأكرم زعيتر، ورشيد الحاج إبراهيم، وعجاج نويهض، وفهمي العبوشي، والدكتور سليم سلامة، وتضمن بيانه الربط بين استقلال البلاد العربية، والوحدة العربية التامة غير القابلة للتجزئة، والتوكيد على عروبة فلسطين، واعتبارها جزءاً طبيعياً من سوريا، والعمل على تحقيق الأهداف بالاتفاق مع الهيئات المطالبة بالاستقلال في البلاد العربية، ويتشابه مع رؤية حزب الاستقلال (الحزب القومي العربي)، في العراق، وسوريا الذي أكد أهمية الخروج على النضال القطري، وبناء حزب قومي، وكان من بين أعضائه العراقيين يونس السبعاوي، ومن أعضاء الحزب أعضاء نادي المثنى بالعراق، والنادي العربي في سوريا[٧][٨].

(٦) عبدالعزيز عرار، حزب البعث العربي الاشتراكي ودوره في الحركة الوطنية الفلسطينية، المركز القومي للدراسات والنشر، ٢٠٠٨، ص١٩.

(٧) يذكر جلال السيد أحد مؤسسي البعث أنه كان عضواً في هذا الحزب الذي وصفه بأنه "حزب سياسي ضخم، ولكنه سري، ضم عدداً كبيراً من رجالات العرب، وبرنامج الحزب كان شبيهاً ببرنامج حزب البعث، ويمكن القول أن له دوراً في الحركات الخطيرة كحركة رشيد عالي الكيلاني.. كان يونس السبعاوي وزير الاقتصاد في حكومة رشيد عالي، وهو في الوقت نفسه حاكم بغداد العسكري... وكذلك درويش المقدادي (فلسطيني من طولكرم) وسعيد الحاج ثابت وكان الحزب على صلة بالأستاذ ساطع الحصري". أنظر، عبدالعزيز عرار، المرجع السابق، ٢٠٠٨، ص٢٠- ٢١.

(٨) يذكر المؤرخ أكرم زعيتر من نابلس الدور العراقي المميز بتوجهاته وأثره في مساعدة الثورة الفلسطينية والتعاطف معها ومع الفلسطينيين الذين فروا للعراق هاربين من العسف البريطاني لهم، وقد وصف العراق بأنه بيضة العروبة وحاضنتها. ومرجل العروبة الذي يغلي، وكان من بين الذين توافدوا محمد أمين الحسيني والدكتور داود الحسيني، والمجاهد عبدالقادر الحسيني والشيخ حسن سلامة، وعز الدين الشوا، وعارف عبدالرازق، والشاعر برهان العبوشي وغيرهم. أنظر، محمد عبدالرحمن عريف، شهادات عن الجيش العراقي في نابلس إبان النكبة.. بين حقيقة تاريخية ورواية مشوهة، مرجع سابق.

الدور العراقي في فلسطين بين (١٩٣٦م-١٩٤٨م)

يتناول عسكري عراقي في مقالات نشرها في جريدة الحوادث اللبنانية، وأخرجها في كتابه الذي جاء بعنوان: (كيف ضاعت فلسطين) إلى أن دور العراق كان حاضراً في ثورة فلسطين (١٩٣٦م-١٩٣٩م)، حيث أخذت إذاعة بغداد تذيع التعليمات الفنية العسكرية في كيفية معالجة المجاهدين الفلسطينيين للسور المكهرب، وأسلاكه الشائكة الذي وضعته حكومة بريطانيا كحاجز بين فلسطين، وسوريا، ولبنان، ونجح الفلسطينيون وتغلبوا على هذا العائق، وبعدها كان معلمو العراق يقتطعون جزءاً من رواتبهم لصالح القضية، وأن ثورة وحركات ١٩٤٠م بقيادة رشيد عالي الكيلاني لم يكن سببها غير نصرة قضية فلسطين....، وقد خسر العراق ١٥٠ مليون دينار بعد قطع خطوط التابلاين النفطية المتجهة إلى حيفا[٩].

لقد شهدت ثورة ١٩٣٦م-١٩٣٩م في فلسطين تحريكاً للقضية الفلسطينية، وللشعور الشعبي، وللموقف الرسمي العربي، وقامت المظاهرات في العديد من المدن العربية، وتسرب إلى فلسطين المتطوعون العرب، وخاصة من العراق، وسوريا يقودهم فوزي القاوقجي على رأس قوة ضمت خمسمائة متطوع، وقد أصدر القاوقجي بياناً قال فيه: "إنه ليغبطني، وقد شرفني إخواني المجاهدون بقيادة الثورة العربية في سورية الجنوبية أن أدعو القادرين من أشبال العرب إلى السلاح، أجل إلى السلاح يا أشبال العرب تحقيقاً للأماني القومية، وإنقاذ فلسطين العزيزة من براثن العبودية والغزوة الصهيونية والمطامع البريطانية..."[١٠].

حمل التفاعل بين المثقفين الفلسطينيين والعراقيين، بعد حصوله على الاستقلال، بالغ الأثر في الهبة الشعبية العراقية التي ضغطت على الحكومة الملكية لإرسال المتطوعين العراقيين إلى فلسطين عام ١٩٣٦م، وتجلت وحدة النضال بين القطرين الشقيقين، وكان العراق الأمل المرتجى كما بينا، وظهر ذلك يوم أن أبدى شعب العراق، ونظامه الملكي، في عهد الملك غازي، تعاطفه مع الشعب الفلسطيني حيث إلتحق خيرة الشباب العراقي بالمتطوعين العرب الذين كان يقودهم البطل القومي فوزي القاوقجي، وقد وصل ومن معه إلى قرية بلعا- طولكرم.

شكل الشعب العراقي لجان عراقية داعمة للقضية الفلسطينية على المستوين الإعلامي- التعبوي والمادي، كما كانت بغداد في الثلاثينيات وأوائل الأربعينيات، من

(٩) محمد عبدالرحمن عريف، شهادات عن الجيش العراقي في نابلس إبان النكبة.. بين حقيقة تاريخية ورواية مشوهة، مرجع سابق.

(١٠) عبدالعزيز عرار، المرجع السابق، ص٢٢.

القرن الماضي، محط رحال للزعماء الفلسطينيين والمثقفين الفلسطينيين؛ حينما التجأ عشرات القادة من الثوار الفلسطينيين، ومعهم خيرة المثقفين الثوريين، والشعراء الوطنيين إلى العراق أمثال: الحاج أمين الحسيني، وأكرم زعيتر، ودرويش المقدادي، وإبراهيم طوقان، والضباط عبد القادر الحسيني، وحسن سلامة، وذو الكفل عبد اللطيف، والشاعر عبد الرحيم محمود، وعبد الفتاح المزرعاوي، والشاعر برهان العبوشي وغيرهم [١١].

يجدر بالذكر أن الثوار الفلسطينيين الذين كانوا لاجئين في العراق، حملوا السلاح وقاتلوا بقيادة عبد القادر الحسيني إلى جانب الجيش العراقي، وأبدوا بسالة فائقة في القتال فأوقفوا تقدم الجيش البريطاني بضعة أيام، وعندما انهارت المقاومة العراقية، انسحبوا إلى إيران، لكن السلطات الايرانية أعادتهم إلى الحدود العراقية، فرجعوا إلى بغداد وتجمعوا في بيت عبد القادر الحسيني، وحاولت السلطات العراقية اعتقالهم لكنها تراجعت بعد تصميمهم على مقاومة الاعتقال[١٢].

تواصل اللقاء العربي المشترك بين العراقيين والفلسطينيين في عام ١٩٤٨م، سواء عبر المتطوعين الذين أرسلهم الجيش العراقي لينضموا لجيش الإنقاذ، أو من خلال فوج الجيش العراقي الذي حضر قادته وجنوده للدفاع عن فلسطين أمام الغزو الصهيوني في منتصف أيار/ مايو، والذين يعود لهم الفضل في حماية المثلث العربي من الرحيل والهجرة، كما حصل في باقي فلسطين، وقد امتدت جبهة القتال من مدينة جنين شمالاً حتى قرية مجدل الصادق جنوب كفر قاسم، وهم الذين خاضوا معارك الشرف مع العدو الصهيوني في هذه المناطق[١٣].

وما زالت الألسن، في بلدة كفر ثلث، ومحافظة قلقيلية، تلهج بالذكر الطيب لما قام به الجيش العراقي ودوره في المعارك التي خاضها دفاعاً عن طيرة المثلث، وقلقيلية حيث أوعز للمناضلين الفلسطينيين بالهجوم على مستعمرة رمات هاكوفيش، وقدم الإسناد من خلال المدفعية المرابطة في صوفين، وما زالت بعض الدبابات المدمرة عند أبواب المستعمرة الصهيونية كشاهد وذكرى، وقد دعاها بعض الكتاب الصهاينة بـ"الأيام العصيبة".

(١١) أكرم زعيتر، الحركة الوطنية الفلسطينية ١٩٣٠- ١٩٣٩، ط٢، منشورات اليسار، ١٩٨٨، ص٣٥٢- ٦٠٦- ٦٠٧- ٦٠٨.

(١٢) بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص١٣٦.

(١٣) لقد كانت أعظم المعارك معركة البطولة والشرف في مدينة جنين وفيها التحم المناضلون الفلسطينيون بقيادة (فوزي جرار) مع جهود القيادة العراقية المتمثلة بالمقدم (عمر علي) وخير شاهد على هذه البطولة المفعمة بروح تحررية، مقبرة الشهداء في جنين ومقبرة شهداء الجيش العراقي قرب نابلس والتي يتم زيارتها وتنظيفها سنوياً وهي مثار اهتمام وعناية جهات متعددة في فلسطين ويجري وضع أكاليل الورد على قبر الجندي المجهول. وجنود العراق البواسل الذي فهموا معنى العروبة ووحدة النضال. أنظر، محمد عبدالرحمن عريف، شهادات عن الجيش العراقي في نابلس إبان النكبة.. بين حقيقة تاريخية ورواية مشوهة، مرجع سابق.

وكانت أعظم المعارك معركة البطولة والشرف في مدينة جنين، وفيها إلتحم المناضلون الفلسطينيون بقيادة فوزي جرار، مع جهود القيادة العراقية المتمثلة بالمقدم عمر علي، خير شاهد على هذه البطولة المفعمة بروح قومية عربية تحررية مقبرة الشهداء في جنين، ومقبرة شهداء الجيش العراقي قرب نابلس، التي يتم زيارتها وتنظيفها سنوياً، وهي مثار إهتمام وعناية جهات متعددة في فلسطين، ويجري وضع أكاليل الورد على قبر الجندي المجهول، وجنود العراق البواسل الذين فهموا معنى العروبة ووحدة نضالنا القومي.

حرب ١٩٤٨م ومقاومة الجيش العراقي في فلسطين

جاءت البداية عندما اتفقت الدول المشاركة في جامعة الدول العربية على إرسال بضعة آلاف من المتطوعين الذين يقدر عددهم بـ(خمسة آلاف) متطوع، وكانوا تحت قيادة (فوزي القاوقجي)، وأطلق عليه إسم (جيش الإنقاذ)، وخاض هذا الجيش معارك متعددة شملت المنطقة الشمالية والوسطى من فلسطين ١٩٤٨م، دخل هذا الجيش إلى فلسطين بعد تدريبات تلقاها في سوريا، وإثر صدور قرار التقسيم عام ١٩٤٧م، ولكنه لم يفلح في زحزحة اليهود من مواقعهم، أو منعهم من التقدم، عندها قررت جامعة الدول العربية إرسال كتائب من الجيوش العربية النظامية للقتال في فلسطين بعد رحيل وجلاء بريطانيا من فلسطين يوم ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨م، وإعلان زعماء العصابات الصهيونية قيام دولة إسرائيل، وضمت أفواج وكتائب لسبع جيوش عربية[١٤].

هنا يتناول الفريق البريطاني (كلوب باشا)، عدد القوات العربية المرسلة لفلسطين في بداية المعارك في شهر أيار/ مايو ١٩٤٨م، على النحو الآتي: الجيش المصري ١٠،٠٠٠، والجيش العراقي ٣،٠٠٠، والجيش الأردني ٤،٥٠٠، والجيش السوري ٣،٠٠٠، والجيش اللبناني ١،٠٠٠، أي أن مجموعها (٢١,٥٠٠)، وأن جيش اليهود كان عدده (٦٥) ألفاً ويشكلون ١٠ بالمائة من مجموع اليهود في فلسطين، وهذا يشير إلى عدم التكافؤ العددي بين العرب واليهود، رغم أن العرب كانوا يومها ٧٠ مليون نسمة، وكانت مصر ٢٤ مليوناً، ومع استمرار المعارك زاد عدد القوات العربية، التي قدرها (كلوب باشا) في أول تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٨م، كما يلي: مصر١٥ ألفاً، والأردن ١٠ آلاف، والعراق ١٥ ألفاً، وسوريا٨آلاف، ولبنان ألفان، والسعودية٧٠٠

(١٤) محمد عبدالرحمن عريف، الجيش العراقي بين سبعة "جيوش إنقاذ" عربية في فلسطين بعد قرار التقسيم ١٩٤٧م.

جندي، إلى جانب الأفراد المتطوعين ومجموعهم ٥٥،٧٠٠ مقاتل، وهنا ينقل صاحب كتاب فلسطين ودور الخلق والعقل في معركة التحرير، عن العميد الركن حسن مصطفى، في كتابه "التعاون العسكري العربي" أن كلا التقريرين مبالغ فيه، وأكثر من الواقع[١٥].

وعن قدوم الجيش العراقي إلى البلاد، وأسبابه، ينقل الباحث عبد العزيز عرار في كتابه خريش المدمرة، نقلاً عن أحد المناضلين الذين شاركوا في جيش الإنقاذ، أحمد عبد الحق الشملة من بلدة كفر ثلث: " لم يكف جيش الإنقاذ، ولا متطوعي البلاد، ولا الجهاد المقدس لحماية البلاد، فأرسلت الجامعة العربية سبعة جيوش عربية، جاءتها هذه القوات من مختلف الجهات، فرابطت قوات الجيش العربي الأردني بقيادة كلوب باشا في كلٍ من القدس، واللطرون، وقرب اللد، والرملة، وأما القوات المصرية فرابطت في جهات غزة والنقب، أما القوات العراقية في نابلس، وجنين، وطولكرم، وقلقيلية، وكفر قاسم، ورأس العين[١٦].

وفي صباح يوم ١٥ أيار/ مايو عبرت سريتان من المشاة وبعض المدرعات إلى غرب نهر الأردن لاحتلال مستعمرة جيشر، وبدأت بقصف مركز البوليس المجاور لها بالمدفعية والطائرات، ولكن تأثير القصف كان محدوداً، وفي المساء شنت قوة المشاة وتساندها المدرعات هجومها على المستعمرة ومركز البوليس، ولكنها لم تحرز تقدما يذكر، وفي نفس اليوم تحرك فوج آخر من المفرق إلى منطقة المجامع، وجددت هجومها على المستعمرة، واستطاعت احتلال سكة الحديد، والتلال المشرفة على المستعمرة من الغرب، وفي صباح يوم ١٧ أيار/ مايو، تقدم فوج جديد بقيادة المقدم عمر علي لاحتلال مرتفع كوكب الهوى، الذي يسيطر على المنطقة من جهة الغرب، واستمرت المعركة طوال الليل، حيث تمكنت الكتيبة العراقية من احتلال كوكب الهوى، بينما فشلت القوة الأولى في احتلال مستعمرة جيشر بسبب قوة تحصيناتها وتمكن اليهود من إصابة وإعطاب عدد من المدرعات[١٧].

ويظهر من سير المعارك قوة التحصينات في مستعمرة كيشر، وهو ما سيجبر العراقيين على تغيير سير طريقهم، وعن ذلك يذكر صادق الشرع: وفي اليوم التالي

(١٥) ينقل صاحب كتاب فلسطين ودور الخلق والعقل في معركة التحرير عن العميد الركن حسن مصطفى في كتابه "التعاون العسكري العربي" أن كلا التقريرين مبالغ فيهما وأكثر من الواقع. أنظر، محمد عبدالرحمن عريف، الجيش العراقي بين سبعة "جيوش إنقاذ" عربية في فلسطين بعد قرار التقسيم ١٩٤٧م. كذلك، كلوب باشا، جندي مع العرب،ص٣٤.

(١٦) عبدالعزيز أمين عرار، قرية خريش المهجرة والمدمرة، جمعية كفر ثلث الخيرية، ٢٠٠٩م، ص٨١.

(١٧) صادق الشرع، حروبنا مع إسرائيل ١٩٤٧مـ ١٩٧٣م معارك خاسرة وانتصارات ضائعة. دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان- الأردن، ط١ ١٩٩٧م. ص ١٣٧- ١٣٨.

شن اليهود هجوماً معاكساً وأجبروا العراقيين على التراجع عن مواقعهم في كوكب الهوى، وبعد اجتماعات جرت في عمان بين نور الدين محمود، والأمير عبد الله، وعبد الرحمن عزام، والفريق كلوب باشا، تقرر نقل القوات العراقية إلى منطقة نابلس، وعلى أثر ذلك تحركت نحو جسر اللنبي، ومنها إلى مدينتي نابلس وطولكرم عن طريق الجفتلك يوم ١٩٤٨/٥/٢١م، واتجهت صوب كفر قاسم(١٨).

تم توزيع الجيش العراقي في المنطقة الممتدة من جنين شمالاً حتى مجدل يابا جنوباً، وشملت المنطقة قرى عين السهلة، وعارة، وعرعرة، وكفر قرع، وباقة العربية، وأم الفحم، ومدينة طولكرم، وقرية قاقون، وقرية قلنسوة، وقرية طيرة بني صعب، وقرية جلجولية، وخريش، وكفر برا، وكفر قاسم والمجدل، بينما جرى توكيل الجيش الأردني في المنطقة الممتدة من منطقة اللطرون حتى الخليل، والجيش السوري في قرى زرعين، وطبريا، ومنطقة الناصرة، والجيش اللبناني على حدوده، والجيش المصري في منطقة بئر السبع والنقب وغزة، وشاركت بعض الكتائب السعودية والسودانية واليمنية من خلال الجيش المصري(١٩).

(١٨) محمد عبدالرحمن عريف، الجيش العراقي بين سبعة "جيوش إنقاذ" عربية في فلسطين بعد قرار التقسيم ١٩٤٧م.

(١٩) محمد عبدالرحمن عريف، المرجع السابق.

معركة كيشر

دعيت هذه المعركة نسبة لمستوطنة قريبة من جسر المجامع، وبدأت عندما دخل الفوج العراقي إلى فلسطين عبر جسر المجامع، ولكن الجسر نسفه اليهود قبل وصول العراقيين إلى ذلك القطاع، وبذل اليهود كل ما في وسعهم لصد الهجمات التي قام بها العراقيون على هذه المستعمرة منذ اليوم الأول لاجتيازهم في ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨م، إلى اليوم الذي انسحبوا فيه يوم ٢٥ أيار/ مايو ١٩٤٨م [٢٠].

وحول دور التحصينات الإسرائيلية، ومتانتها، ودور الجيش العراقي، ومحاولاته اختراق التحصينات فقد راح العراقيون، في صباح ١٦أيار/ مايو، يقصفون المستعمرة بمدافع المورتر من عيار٣ بوصات، ومدافع الميدان من عيار خمسة وعشرين رطلاً، وكانت هذه منصوبة فوق الهضاب الكائنة على جانبي طريق اربد، وألقت الطائرات العراقية بعض القنابل على المستعمرة، إلا أنها أخطأت الهدف، وبعد برهة بدأت المدافع العراقية من عيار٣,٧ بوصة المنصوبة في جهة الشونة تقصف المستعمرة فدمرت بعض مبانيها، وعاد العراقيون ليشنو في فجر يوم ١٧ أيار/مايو هجوماً عليها، واجتازت المصفحات العراقية عدة تحصينات، وخطوط دفاعية، بقصد الإطباق على كيشر، بينما دافع اليهود بعدد من الرشاشات، والمدافع المقاومة للدبابات، ولكن اشتد قصف المدفعية العراقية التي فتكت قنابلها بحاميات البوليس، ونفذت حتى الاستحكامات، وزحف العراقيون نحوها، ودافع اليهود دفاع المستميت، ونجحوا في صد العراقيين، وقالوا إن العراقيين خسروا ستين جندياً، واستغل اليهود السدود التي أقاموها على النهر، وفتحوا السدود أكثر من المعتاد، ومع اقتراب العراقيين من احتلال المستعمرة جاءتهم نجدات من الطائرات، والمشاة، واقترب العراقيون من سياج المستعمرة، ثم من باب العمارة فيها، ولكنها لم تستطع اقتحامه، وقذفها اليهود بقنابل المولوتوف فأحرقوها، فعاد العراقيون إلى جسر المجامع، وقد أنهك التعب الفريقين، ولكن اليهود سرعان ما حضرت إليهم تعزيزات، ونجحوا في إزاحة العراقيين عن هضبة الجمل القريبة، وانتهت بالفشل[٢١]. وكان السؤال المثير لماذا انسحب الجيش العراقي من هذه المنطقة، وتركها واستدار صوب الجفتلك وطوباس،

(٢٠) تناول هذه المعركة بالشرح والتفصيل المؤرخ عارف العارف والذي اعتمد على لقاءات مع قادة وضباط عراقيين وحصل على وثائق وزارة الدفاع العراقية. أنظر، عارف العارف، نكبة فلسطين والفردوس المفقود، ج٢، ص٣٧٤.

(٢١) عارف العارف، نكبة فلسطين والفردوس المفقود، المرجع السابق،ص٢٧٥، ٢٧٦، ٢٧٩.

ومنها إلى جنين؟ وكان لا أحد يعلم إلا الذين كانت بيدهم مقاليد الأمور، لماذا أمر الجيش العراقي بالكف عن محاصرة كيشر[٢٢]؟

تحت هذا العنوان كتب صحفي أمريكي أرسل منتدباً من قبل اتحاد الصحافة في أمريكا الشمالية، ومما جاء في كتبه: "ادفع دولار تقتل عربياً"، وفي عنوان في المثلث العربي بفلسطين معركة بين العراقيين والإسرائيليين... كانت القوات العراقية المرابطة حول كثبان جنين منتشرة من برقين إلى عرابة، على مسافة تبلغ نحواً من ميلين، وإلى الشرق من طريق جنين - حيفا، كانت تقوم مستعمرتان صهيونيتان صغيرتان، وكانت هاتان المستعمرتان هما "يامون" و"كفردان".. وكانت شوارعهما، ومنازلهما تتلألأ عادة بالأنوار الساطعة بعد غروب الشمس[٢٣].

وحول خسائر العرب يتحدث أستاذ التاريخ في جامعة القدس المفتوحة بمدينة طولكرم عبد الرحيم المدور في كتابه(قاقون) أن شهداء القرية ٣٣ رجلاً وامرأة، وإثنين هبوا لنجدتها من دير الغصون، وأن ٣٧ جندياً عراقياً استشهدوا في المعركة، وهم خُمس شهداء الجيش العراقي الذين قدرهم المؤرخ الفلسطيني عارف العارف بـ(٢٨٧ شهيداً) بينهم عشرة ضباط، وحول احتلال القرية؛ فقد تم يوم الجمعة الموافق الرابع من حزيران/ يونيو سنة ١٩٤٨م حينما بدأت الكتيبة الثالثة التابعة للواء اسكندر التابع للجيش الإسرائيلي بقصف قاقون بمدافعهم، وقد تصدت القوة العراقية الواقعة في المدخل الشمالي لقرية قاقون والمقدرة بـ(٤٥ جندياً) حيث قاومت المهاجمين بكل ما أوتيت من قوة، وبقيت مرابطة في مواقعها حتى اليوم التالي، حيث استشهد غالبيتهم، وقد وصفتها صحيفة نيويورك تايمز بأنها الأكثر دموية، وذكرت أن المدافعين العراقيين استطاعوا الصمود في ثلاثة خطوط من الخنادق خارج القرية، وأضافت أنهم رفضوا التخلي عن الأرض كما لو كانوا أصحاب البلاد[٢٤].

(٢٢) هنا يتحدث المؤرخ عارف العارف عن معارك أخرى ومنها: معركة كوكب الهوى والتي احتفظ العراقيون بها من الخامس عشر حتى السابع عشر من أيار/ مايو ١٩٤٨م، والتي تعرضت لحصار وقوات كبيرة واضطر العراقيون لأن يسوقوا سرية جديدة لتخفف الضغط عن السرية المحاصرة، وانسحبوا منها والتي سقط فيها ٢٣ شهيداً. أنظر، محمد عبدالرحمن عريف، الجيش العراقي بين سبعة "جيوش إنقاذ" عربية في فلسطين بعد قرار التقسيم ١٩٤٧م.

(٢٣) في تلك الليلة بالذات...لاحظ المراقبون العرب أن أضواء الشوارع في تلك المستعمرتين الصهيونيتين كانت قاتمة،وأن المنازل كانت مهجورة فيما يبدو.وعند الساعة الثامنة حملت هذه الأنباء إلى مقر القيادة العليا للقوات العراقية،واستعدت المواقع العراقية الأمامية لكل طارئ.عند العاشرة والنصف خيم الصمت على المكان، وبلغ التوتر ذروة مقلقة. كانت القرى المتلألئة عادة بالنور مظلمة كلها في ناحية الغرب، وكان ضباب دان يزحف من جانب البحر المتوسط، فيزيد السكينة ثقلاً ويشيع الوحشة في الجو كله. وفي محاذاة الكثيب تحرك الجنود العراقيون، محترسين حذرين، في خنادقهم محملقين بأعينهم، محاولين أن يكتشفوا حركة ما وسط الظلام. ولم يكن القمر متوقعاً قبل ساعات الصباح الأولى، وكان الضباب يغشى النجوم. وغدت التربية السمراء رطبةً نديةً باردةً جداً، فهي تلصق بأيديهم، فيضطرون إلى إزالتها عنها قبل أن يمسكوا ببنادقهم. أنظر، محمد عبدالرحمن عريف، الجيش العراقي بين سبعة "جيوش إنقاذ" عربية في فلسطين بعد قرار التقسيم ١٩٤٧م.

(٢٤) محمد عبدالرحمن عريف، الجيش العراقي بين سبعة "جيوش إنقاذ" عربية في فلسطين بعد قرار التقسيم ١٩٤٧م.

وعن دور الضابط رفعت الحاج سري، يقول أحد أبناء قلنسوة: عن قريته، وهي قريبة من قرية الطيرة "، دخلت القرية أفراد من الجيش العراقي وعلى رأسهم الرئيس صديق، والرئيس متى يرافقه ضابط خبير متفجرات (رفعت الحج سري) هذا الضابط أظهر اهتماماً بالغاً، وأبدى حباً عظيماً للقرية وأهلها، ومن أعماله الإيجابية: نقل الخطوط الدفاعية إلى الأمام، حتى أصبحت ملاصقة تماماً من خطوط اليهود، وقريباً جداً من المستعمرات، حيث نظر لها كمكسب، ولقد أحبهم وأحبوه وتقاسموا الرغيف وتناوبوا على الحراسة بينهم.،. وباعت النسوة حليهن وأشترى أزواجهن السلاح والعتاد، ولم ترسل الدول العربية لهذا الموقع ما يستحق الذكر سوى بعض صناديق الذخيرة التي كان هذا الضابط يحصل عليها سراً، وبعض الملابس الشتوية أرسلت معونة من الشعب العراقي[٢٥].

هجم العدو الصهيوني في ليلة (٢٧- ٢٨ أغسطس/ آب ١٩٤٨م) واستهدف (ربايا) المتطوعين الفلسطينيين الموجودة في كفر قاسم، واجبرهم العدو على تركها، إلا أن آمر الفوج الأول المقدم الركن عبد الكريم قاسم لم يمهلهم في هذه المرة أيضاً، فاستخدم قسماً من احتياطية واستطاع بإسناد المدفعية أن يهاجم العدو، ويسترجع جميع الربايا- الروابي في معركة استمرت طيلة يوم ٢٨ أغسطس/ آب، وفي المساء أبرق الجحفل الأول إلى القيادة العراقية برقية (٧١١/ح) الساعة السادسة مساءً قال فيها: "إن من السهولة احتلال المجدل....، وطلب الجواب، فكان رد القيادة ما يلي: "ليس لمجدل يابا أهمية كبرى للاحتفاظ بها بعد احتلالها يتطلب استخدام فوج آخر، كما أنه يؤدي إلى اتساع جبهتنا، والتقليل من قواتنا الاحتياطية". أطلب منكم الاحتفاظ بمواضعكم الأصلية، وعدم الإسراف بقواتكم، ولاسيما اعتدتكم على أغراض بسيطة جداً بالنسبة إلى الأهداف العامة، التي تتوخاها القيادة العامة في المستقبل"[٢٦].

معركة جنين

جرب اليهود قطع الطريق على الجيش العراقي بجنين فابتدئوا وحشدوا لهذا الهجوم ٤٥٠٠ جندي، وانطلق هجومهم على العفولة في الثالث من حزيران/ يونيو ١٩٤٨م، فاحتلوا في طريقهم قرى زرعين، وصندلة، والجلمة، وقصفوا، مدينة جنين

(٢٥) محمد عبدالرحمن عريف، المرجع السابق.

(٢٦) لقد أعقب صدور هذه البرقية في ٣٠ أغسطس/ آب ١٩٤٨م أمر من القيادة العراقية بإعادة الفوج الأول من كفر قاسم وقلقيلية إلى الاحتياط في الهوارة وأن تسلم مواضعه إلى الفوج الثالث من اللواء الثالث. ونفذ الأمر ليلة ٢-٣ يوليو/ تموز ١٩٤٨م.

من الجو، وتقدموا لها من ٣ محاور، وكان الهجوم الرئيس من الشمال، وقد أخلاها جيش الإنقاذ قبل وصول الجيش العراقي، ولم يكن فيها أكثر من١٥ مناضلاً فلسطينياً وسرية أردنية يقودها عصر المجالي، والتي انسحبت أيضاً قبل أن تسلم مواقعها للجيش العراقي، فذعر سكان المدينة، ورحل معظمهم، ولجأ من بقي منهم إلى قلعة تيجارت وعددهم لا يزيد عن خمسين، وفي هذه الأثناء وصل فصيل عراقي مؤلف من ٣٧ رجلاً يرافقه ٥٠ مناضلاً فلسطينياً تمركزوا في تل يقع شمال جنين بثلاثة كيلومترات، ثم وصلت سرية عراقية تعدادها ٨٠ رجلاً، وتبعتها سرية أخرى، وزاد عددهم حتى بلغوا ٢٥٠ رجلاً يرافقهم خمسين مناضلاً فلسطينياً، ونظراً لاحتلال المدينة من قبل اليهود قاموا بحصار القلعة ومهاجمة المتحصنين حتى ٣حزيران/ يونيو ١٩٤٨م[٢٧].

لقد تعرضت هذه الكتيبة لقصف جوي وهي في طريقها، وواصل الجيش العراقي زحفه عبر الطريق العام، بينما زحف المناضلون الفلسطينيون من الجبال المحيطة بالمدينة بأعداد كبيرة، ومعهم عدد من النساء يزغردن ويشجعنهم، وعند الظهر وصل الفوج العراقي، ونجحوا في فك الحصار عن القلعة، وخسر اليهود ٣٥٠ قتيلاً، وذكرت مصادرهم أنهم خسروا ألف قتيل وجريح، وغنم العرب كميات كبيرة من السلاح والعتاد والألغام، واستشهد ٢٠ جندياً وضابطاً عراقياً و٢٠ من المناضلين الفلسطينيين و٤٦ من المدنيين[٢٨].

معركة قاقون

قرية فلسطينية تقع في السهل الساحلي الفلسطيني، عرفت بمشاركتها في عدة ثورات فلسطينية، وقد استعد ستون شاباً للدفاع عنها، وحضر إليها جيش الإنقاذ بقيادة الضابط العراقي مدلول بيك وانسحب منها، ثم وصلها الجيش العراقي متأخراً بعد أن زاد ضغط العصابات الصهيونية عليها، حيث وصلها فصيل من الجيش العراقي وتعداده ٣٣، واحتشد اليهود في ٤ حزيران/ يونيو في البيارات القريبة من قاقون، وقصفوها بعد الظهيرة بقذائف المورتر، فقتلوا عشرة، مما اضطر السكان للرحيل، ووصلت القرية نجدات متأخرة فسقطت في يوم٥حزيران/

(٢٧) حول دور الفوج العراقي وتلبيته لنداء المستغيثين في مدينة جنين ننقل بعض ما كتبه بهجت أبو غربية، وفي هذه الأثناء طلبوا النجدة من القيادة في نابلس فتحرك فوج عراقي(كتيبة) من نابلس بقيادة المقدم عمر علي الذي أشيع أنه تحرك بدون أوامر من قيادته العليا التي طلبت منه التريث، واستعان هذا الفوج بأعداد كبيرة من مناضلي قرى نابلس، وجنين، وعرابة، وبرقين، ورمانة، وسيلة الظهر، وصانور. أنظر، بهجت أبو غربية، مذكرات المناضل بهجت أبو غربية ١٩١٦م- ١٩٤٨م،في خضم النضال العربي الفلسطيني، مؤسسة الدراسات الفلسطينية،بيروت،١٩٩٣م. ص٣١٠.

(٢٨) بهجت أبوغربية، المرجع السابق. ص٣١٠.

يونيو، وحاول الجيش العراقي استردادها في اليوم التالي، ولكنه لم يدخلها واكتفى بقصفها بالمدفعية(٢٩).

وحول احتلال القرية فقد تم يوم الجمعة الموافق الرابع من حزيران/ يونيو سنة ١٩٤٨م، حينما بدأت الكتيبة الثالثة التابعة للواء اسكندر التابع للجيش الإسرائيلي بقصف قاقون بمدافعهم، وقد تصدت القوة العراقية الواقعة في المدخل الشمالي لقرية قاقون والمقدرة بـ(٤٥ جندياً)، حيث قاومت المهاجمين بكل ما أوتيت من قوة، وبقيت مرابطة في مواقعها حتى اليوم التالي، حيث استشهد غالبيتهم(٣٠). ويتحدث صالح العلي عن انتقام العراقيين لاستشهاد حاميتهم في قرية قاقون القريبة، والذين أرسلوا مصفحات عراقية صوب مستعمرة قريبة من بلدتهم، ومعهم الشباب الفلسطيني المتحمس، وسقطت المستعمرة بأيديهم والكل يهلل ويكبر، ودخلوا المستعمرة ونهبوا ما فيها، ولكن طابع الارتجال جعل العراقيين والفلسطينيين ينسحبون بعد ساعات، حيث شن اليهود هجوماً معاكساً(٣١).

(٢٩) حول خسائر العرب يتحدث استاذ التاريخ في جامعة القدس المفتوحة بمدينة طولكرم عبدالرحيم المدور في كتابه (قاقون) أن شهداء القرية ٣٣ رجلاً وامرأة واثنين هبوا لنجدتها من دير الغصون وأن ٣٧ جندياً عراقياً استشهدوا في المعركة وهم خُمس شهداء الجيش العراقي الذين قدرهم المؤرخ الفلسطيني عارف العارف بـ (٢٨٧ شهيداً) بينهم عشرة ضباط. أنظر، بهجت أبوغربية، المرجع السابق. ص٣١١.

(٣٠) وصفتها صحيفة نيويورك تايمز بأنها الأكثر دموية وذكرت أن المدافعين العراقيين استطاعوا الصمود في ثلاثة خطوط من الخنادق خارج القرية، وأضافت أنهم رفضوا التخلي عن الأرض كما لو كانوا أصحاب البلاد. أنظر، عبدالرحيم المدور، قرية قاقون، ص٩٤.

(٣١) صالح العلي، بصمات الأيام، ص ٥٦، ٥٧.

معركة الطيرة وتقرر مصير نابلس

قرية الطيرة قرية فلسطينية مناضلة تربض في نهاية السهل الساحلي الفلسطيني، وهي قرية حديثة النشأة، وعمرها يقارب من (٣٠٠) عاماً، قاومت الاستعمار الصهيوني مبكراً، حينما هب رجالها في ثورة ١٩٢١م، لنصرة الشيخ شاكر أبو كشك في هجومه على مستعمرة ملبس، وهي أول مستعمرة صهيونية، وفي الحرب راحت تشارك ببسالة، وتتصدى لمستعمرة رمات هاكوفيش التي كانت كالقلعة الحصينة، وتعرضت لهجمات صهيونية متكررة بلغت ٣هجمات، وقد صدتها جميعاً، بينما سقطت حيفا ويافا وعكا ومع أن الذخيرة قليلة؛ لكن البطولة والفداء فاقت التوقعات وجمعوا التبرعات، وجاءت نجدات من قبل الثائر حمد جودة زواتا، الذي أمدهم بستين رجلاً، وهو أحد قواد الفصائل في ثورة ١٩٣٦م-١٩٣٩م، كذلك جاءتهم من سيلة الظهر قرب جنين.

ويتحدث المناضل المرحوم عبد الرحيم عراقي في كتابه (لا تخف) أنه وصلت أبناء قرية الطيرة خبر قدوم الجيش العراقي إلى مدينة طولكرم على بعد ١٣ كيلومتراً، فاستبشروا واطمأنوا، وضجت القرية بالفرح والأمل عندما سمعوا بخبر هجومهم على مستعمرتي نتانيا وكفار يونا، ولكن جاءتهم الأوامر من الملك عبد الله ملك الأردن بالانسحاب... ثم حضروا للطيرة ومعهم ستون جندياً، وكان أول عمل قامت به القيادة العراقية في الطيرة هو تسجيل المقاتلين، وصرف عشرة دنانير شهرياً لكل منهم، ثم حسنت الخطوط الدفاعية والخنادق بعمل (الروابي) أو (الرابية)، والتي تسمى في فلسطين بـ(الطابات)، وحضر المقدم عمر علي ليتفقد مواقع الطيرة، وقد سر من مقاومة القرية، وقال: أنتم بهذا العمل الجبار تدافعون عن نابلس، وبعد حضوره أطلقت المدفعية العراقية الجبلية قذائفها على مستعمرة هاكوفيش..، ولا يدخر الجيش العراقي من مشاغلة دائمة للقوى الصهيونية في هذه المنطقة[٣٢].

وفي هذه الإثناء قام العراقيون بجمع سبعة متسللين فلسطينيين، وطلبوا منهم المساعدة في تنفيذ أحد المهمات، وسلموهم مسدس إشارة تنوير، وطلبوا منهم إطلاق إشارة عند اقترابهم من المستوطنة، وقالوا لهم إذا نجحتم في هذه المهمة تطلقوا

(٣٢) هنا راح الجيش يقدم خدمات للمدنيين، مثل: تقديم الأغذية للمواطنين وتوزيعها عليهم أو طبخها ورصف الطريق... وجمعت المنشورات التي وزعها الصهاينة في حربهم النفسية على الفلسطينيين والتي راحت تشكك بالعلاقة بين الفلسطينيين والعراقيين وتواصلت الاشتباكات وقام الصهاينة بهجوم رابع على الطيرة ولكن العراقيين والفلسطينيين صدوه وقابلوه بهجوم معاكس على مستعمرة هاكوفيش واستشهد سبعة جنود عراقيين ناهيك عن عدد من المناضلين الفلسطينيين وبينما كان الدم ينزف من جندي عراقي وبغزارة كان يقول "هذا كرمالك يا فلسطين" وهكذا سارت جنازة الشهيد أحمد ناصر على الأكتاف وفي ملابسه العسكرية.

طلقة خضراء، وإذا فشلتم تطلقوا طلقة حمراء، وتقدموا لمستعمرة هاكوفيش، وجاءوا الخنادق من الغرب، وكانوا يجيدون اللغة العبرية، ولما وصلوا الخنادق وجدوا حارساً بباب المستعمرة، وانقّضوا عليه بالخناجر بعد أن أوهموه أنهم دورية إسرائيلية، وأجهزوا على بقية الموقع واستلموه، وبدلاً من إن يطلقوا طلقة خضراء أطلقوا طلقة حمراء، وطلقة خضراء أخرى، وكان الجيش العراقي على أهبة الاستعداد للهجوم، وفكر العراقيون أن المناضلين الفلسطينيين غلطوا فعلاً، بدأ إسناد المدفعية مع تقدم الجنود، وسقطت كل الخنادق بيد الفلسطينيين والعراقيين، وكانت معركة حامية الوطيس خسر فيها العرب عدداً كبيراً، وذهبت إلى قلقيلية، وكان فيها أكثر من عشرين داراً استشهد أبناؤها"[٣٣].

معارك الجيش العراقي حول جلجولية ورمات هاكوفيش

ليس أبلغ من الاستشهاد بأحد المناضلين عند حديثه عن سير المعركة، وعلاقتها بالدفاع المحدود ضمن معركة سياسية محدودة أعد لها النظام الملكي، وكذلك فعل ملوك ورؤساء العرب يومها، حيث أرسلوا هذه الأفواج لا لتخوض معركة تحرير وإنما لتدافع عن بعض ما تبقى بيد العرب، بعد ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨م، ويظهر أن قادة الجيش العراقي وضباطه لم ينسجموا مع هذا المخطط، وقد دفعوا بالمناضلين الفلسطينيين للهجوم، وتم إسنادهم بالمدفعية والدبابات، وفي هذا الشأن سمع الفلسطينيون مقولة ضباط وجنود عراقيين: (ماكو أوامر) وهذه كانت مصدر لغط وأسيئ فهمها، ورغم ذلك خاضوا معارك الفخار والعز، غصباً عن نور السعيد وعبد الاله[٣٤].

وعن المناوشات التي جرت غير بعيد من قرى خريش، وجلجولية، وعن مشاركة أبناء القرى الفلسطينية يقول المناضل عثمان عبدالهادي عرار: "سيطرت الحركة الصهيونية على عشرة بيارات كبيرة من البرتقال قرب قرية بيار عدس إلى الغرب من جلجولية، وبدأت المعارك حولهن، وفي البداية كانت مناوشة، واجتمع ضابط عراقي وصهيوني، وفيها حذر الضابط العراقي الضابط اليهودي بأن يخلي العشر بيارات، لكن الضابط الصهيوني قال: سنأخذها غصبن عن السبع ملوك، وكان

(٣٣) عبدالعزيز عرار، قرية خريش المدمرة، جمعية كفر ثلث الخيرية،٢٠١٠م، ص٨٧.

(٣٤) يروي أحد الشهود المرحوم توفيق أبو صفية: "كانت بداية مشاهداتنا لمعارك الجيش العراقي أن هذا الجيش قصف ملبس ورأس العين حيث تتمركز القوات اليهودية، ودخل المجاهدين الفلسطينيين إلى المعسكر البريطاني قريباً من رأس العين وهرب اليهود إلى الغرب تحت غطاء من نيران المدافع والدبابات العراقية، وتقدمت مشاة الجيش العراقي إلى قرية مجدل الصادق، وحدثت معارك باسلة بينهم وبين اليهود وخسر الطرفين عدد من الدبابات والسيارات العسكرية، وبعدها جاءت أوامر للجيش العراقي بأن يحافظ على مواقعه ولا يتقدم، ورجعت القوة إلى كفر قاسم، ورابط العراقيون على طول خط سكة الحديد الممتدة من رأس العين إلى طولكرم وجنين شمالاً وسعوا إلى ضم فلسطينيين. أنظر،عبد العزيز عرار، قرية خريش المدمرة، جمعية كفر ثلث الخيرية،٢٠١٠م، ص٨٣.

الوسيط الدولي حاضراً، فما كان من الضابط العراقي إلا أن بطحه على الأرض، وخبط عليه، وفصل بينهم المراقب الدولي، وقام العراقيون بتوزيع جنود ومناضلين على البيارات، وأمر الضابط العراقي إثنين من المناضلين العرب بتعبئة أكياس الرمل، ووضعها في سواتر ترابية أمامهم، وتسللوا إلى البيارات وهم منبطحون أرضاً، وفي هذه الأثناء دخلت فيها ثلاث دبابات إسرائيلية، وبدأت الرشاشات تحصد شجر البرتقال[٣٥].

ويظهر أن العراقيين لم يستسلموا، وواصلوا قتالهم، رغم جرح القادة، وتسلموا المسؤولية، حيث يضيف الراوي السابق: "وأصيب عريف عراقي بجرح في كتفه، وتسلم رشاشه جندي أول، وأصيب هو الآخر بنفس الإصابة، واستلم الرشاش جندي عراقي، واثنين من المناضلين، وأوقفوا تقدم الجنود بعد أن جاءتهم أوامر من القيادة الخلفية في تله عارف بقرية جلجولية، وأعطى هؤلاء إشارة إلى المدفعية في موقع صوفين بمدينة قلقيلية، فأخذت مدافع العراقيين تدمر دبابات الإسرائيليين، وشوهدت إحداها محترقة غربي جلجولية، واشتركت مصفحة لبلدية قلقيلية في المعركة، وكانت محملة بمدفع رشاش من نوع (Six Bounder)، ومعها برن، واتجهت لبيارة رفيق أبو حجلة إلى الجنوب من البيارة الأولى، وهي مكشوفة، وضربها اليهود بمضاد للدروع وبنشرت، بعد ذلك جاءت دبابتان عراقيتان، وطرحنا عليهم بأن يتقدموا لنجدة المصفحة العربية، فكان الجواب: "ماكو أوامر"، جاءت دبابة إسرائيلية، وهي الثالثة، وطلعوا عن سكة الحديد إلى السهل، وبدأنا في الرماية، عند ذلك تنفست مصفحة قلقيلية الصعداء، ومشت ولا زالت ترمي، وعندما شاهدها اليهود طلعت على السكة تركوا الخنادق وهربوا، وسقطت بيارة أبو حجلة ثانية في أيدي العرب، وبعدها سقطت العشرة بيارات في أيدي العرب، واستلموهن ١٥ يوم، و جاء أمر بوقف إطلاق النار الأخير، ورجعنا لخط إطلاق النار شرقي خط سكة الحديد"[٣٦].

ويبدو أن العراقيين اهتموا بتكليف المناضلين الفلسطينيين بمهمات نضالية، حيث يتحدث المناضل المرحوم توفيق أبو صفية: "أرسلنا يومها عريف في الجيش العراقي للقيام بالمهمة، وضربنا قوة اليهود في قرية بيار عدس، ورجعنا بسلام، وصارت مناوشات وانتقلنا إلى خندق في تل عارف، وفي ليلة من الليالي هاجمونا اليهود،

(٣٥) عبدالعزيز عرار، المرجع السابق، ص٨٤.

(٣٦) عبدالعزيز عرار، المرجع السابق، ص٨٤.

وبدأت الرماية من الطرفين، وبقيت المعركة دائرة لغاية الساعة الثالثة صباحاً، وكان عندنا جنديين عراقيين، انتقلنا بعدها إلى جسر المويلح على خط سكة الحديد قريب من بيارة أبو جبارة، وهناك أيضاً هاجمونا اليهود، وكان الخندق منفرد، وبعيدين عن وحدة المناضلين، والجيش العراقي، وبقيت الرماية لغاية الصبح، وكلفنا الجيش العراقي بعدة مهمات، حيث أرسلوني ومعي داود الحاج احمد الأشقر، والشيخ سليم سلامة هدشة للهجوم على موقع لليهود يقع غرب جلجولية، ورجعنا للقيادة العراقية في دار عارف بجلجولية، وأشرف علينا الضابط عزت الذي أمرنا بالهجوم مرة ثانية على البيارة ورجعنا، ووجدنا اليهود هاربين"[٣٧]، ويفخر توفيق أبو صفية بدور جيش العراق، ويلهج ذكره ببعض الأسماء التي شاركت في الحرب، والعلاقة الحميمة بين أطياف الشعب العراقي[٣٨].

جرت مناوشات ومعارك بين القوات الصهيونية والجيش العراقي، قرب عارة، وعرعرة في معركة أم المقايل، ونجحت القوة العراقية في قطع طريق وادي الروحة وجنين، فقد جلب عبد القادر يونس أفراد الجيش العراقي إلى عارة، حيث كانت تربطه صداقة وثيقة بغازي الداغستاني منذ أيام الدراسة في بيروت، وحصل تشجيع من القوة العراقية للفلسطينيين الذين قاتلوهم في معركة المكايل، وأسهم وجود مجموعة في لجوء مجموعة قرى إلى عارة، وعررة[٣٩].

معارك حول قرية مجدل يابا أو الصادق

في ١٧ تموز/ يوليو عام ١٩٤٨م تسلم المقدم عبد الستار حسين، آمر فوج شرطة، من القوة السيارة مسؤولية القطاع من المقدم الركن عبد الكريم قاسم آمر الفوج الثاني، وكانت الأوامر تقتضي أن يتحرك فوج عبد الكريم إلى نابلس للالتحاق بجحفل اللواء الاول، وتحرك الفوج فجر ١٨ تموز/ يوليو على طريق (جسر الشيخ حسين- دامية- جفتلك- نابلس) برغم أنه كان من المفروض حسب الأوامر، الصادرة لعبد الكريم قاسم، أن يسلك طريق (المجامع- المفرق- الزرقاء- عمان- جسر اللبني- اريحا- جفلتك- نابلس) الذي يزيد على ضعف الطريق الأول، وهو أكثر أماناً للقطعات، وبعيداً عن خطوط نار العدو، فيما كان الطريق الذي سلكه قاسم المستعمرات الصهيونية، وقد خاطر آمر الفوج فسلك الطريق القصير خلافاً لأوامر

(٣٧) المرجع السابق، ص٨٥.

(٣٨) المرجع السابق، ص٨٧.

(٣٩) فؤاد عبدالنور، المثلث الارض والانسان، ص٢٠٧.

القيادة (متحملاً مسؤولية عمله..)، وفي اليوم نفسه الذي التحق فيه قاسم إلى منصبه الجديد، هجم العدو الصهيوني على مواضع (كفر قاسم) بالمشاة والمدرعات وبإسناد نيران الهاون والرشاشات، وتقدمت بعض قوات العدو واقتربت من مواضع الاحتياط!. وإن لم يمهلهم قاسم مزيداً من الوقت خاصة بعد احتلال قوات العدو لبيارة المختار، وأبنية المعسكر البريطاني الشمالية، وقام بهجوم مقابل استمر حتى الساعة الخامسة من صباح يوم ٢١ آب/ أغسطس، واستطاع طرد العدو، والسيطرة على الموقف، واسترجاع أبنية المعسكر البريطاني الشمالية، وبيارة المختار، والتلول الواقعة في جنوب كفر قاسم، ولم يتكبد فوج قاسم سوى أربعة جرحى من المراتب، وفي ٢٢ آب/ أغسطس، قام قاسم بطرد قطاعات العدو التي حاولت ثانية التسلل إلى بيارة المختار وكفر قاسم[٤٠].

وعلينا أن نؤكد أن حجم المشاركة العسكرية العراقية في فلسطين عام ١٩٤٨م.. لم يرتق إلى المستوى المطلوب، ليس بسبب قوى وقدرات الجنود العراقيين، ومدى جاهزيتهم للقتال، وإنما بسبب تردد الأوساط السياسية العراقية العليا وإحجامها عن إرسال أفضل الوحدات العسكرية المقاتلة، وامتناعها عن إرسال قوات جوية كافية للدفاع عن القرى والمدن الفلسطينية، هذا فضلاً عن ضغوطات مارستها بعض النخب العراقية (في الجيش والحكومة) التي عارضت الميول القومية العربية، وطورت نزعات محلية انعزالية وشعوبية، ورأت في أي تدخل عراقي في فلسطين، أو أي قطر عربي آخر، تبديداً واستنزافاً لقدراته ومقدراته، فقد شارك زهاء ٨٠٠ عراقي في قوات المتطوعين العرب، في حين بلغ عدد جنود الجيش العراقي في قمة مشاركته في المرحلة الثانية عشرة آلاف جندي[٤١].

وعلى الرغم من كل هذه الظروف، فقد كانت مشاركة العراقيين، حيثما أتيح لهم ذلك، مؤثرة وفعالة وساهمت بالإبقاء على قطاعات واسعة عربية ومنعت تهجيرها، في المرحلة الأولى شارك المتطوعون العراقيون بقيادة المقدم علي غالب عزيز في معركة رأس العين الأولى (الثامن من آذار/ مارس ١٩٤٨م)، حيث انتزعوا منطقة العيون، ومنشآت المياه من أيدي البوليس البريطاني، ومنعوا تسليمها لقوات الهاجاناه (كما جرى في حالات أخرى كثيرة قام الإنجليز فيها بتسليم منشآت

(٤٠) بالفعل وصلت قوة قاسم مساء اليوم نفسه ثم استمر بتنقله حتي عسكر جوار قرية (عنبتا) ضمن قطاع جحفل اللواء الاول!. وفي ٢٠ آب/ أغسطس ١٩٤٨ نقل المقدم الركن عبد الكريم قاسم إلى منصب آمر الفوج الأول من اللواء الأول بعد نقل المقدم الركن علي غالب عزيز بمنصب الحاكم العسكري لبلدة نابلس. أنظر، محمد عبدالرحمن عريف، شهادات عن الجيش العراقي في نابلس إبان النكبة.. بين حقيقة تاريخية ورواية مشوهة، مرجع سابق.

(٤١) عبدالعزيز أمين عرار، معارك الجيش العراقي في حرب ١٩٤٨، دنيا الوطن، ٤ حزيران/ يونيو ٢٠١١م.
https://pulpit.alwatanvoice.com/articles/2011/06/04/229542.html

حيوية لليهود)، وقد خسر العراقيون في هذه المعركة شهيداً واحداً، وأصيب جندي آخر بجراح متوسطة نقل على أثرها للعلاج في مشافي يافا. كما شارك بعض المتطوعين العراقيين في هذه المرحلة في معركة كفر قرع حيث نظّم أربعة ضباط منهم وضابطان سوريان آخران المعركة التي خاضها أبناء تلك القرية يوم الثامن من أيار/ مايو، وصدوا فيها هجوماً مركزاً لقوات الهاجاناه أرادت من خلاله الاستيلاء على كفر قرع، وممر وادي عارة الاستراتيجي المهم، كما تكبدت قوات المتطوعين العراقيين خسائر كبيرة في الأرواح (١٧ شهيداً) في هجوم جيش الإنقاذ الفاشل على مستوطنة مشمار هعيمق[٤٢].

أما في المرحلة الثانية للحرب، فقد بدأت بدخول وحدات من الجيش العراقي النظامي فلسطين في الخامس عشر من أيار/ مايو ١٩٤٨م عن طريق جسر المجامع، واشتباكها مباشرة مع القوات اليهودية في كوكب الهوى وجيشر، حيث استشهد في هاتين المعركتين ٤٠ جندياً عراقياً، ومن ثم تقدم باتجاه مرج بن عامر، وقضائي جنين وطولكرم، وقضائي يافا والرملة، وفي أثناء انتشاره في هذه الجبهة التي زاد طولها على ١١٠كم، خاض معركة (الطيرة - رامات هكوفيش) في الرابع والعشرين من أيار/ أيار ١٩٤٨م، والتي سقط فيها ١٢ شهيداً عراقياً، ثم معركة رأس العين الثانية في ١٩٤٨/٥/٣٠م، التي فقد فيها شهيدان ومعركة جنين والمزار في الفترة الواقعة بين (٢-٤ حزيران/ مايو)، والتي فقد فيها العراقيون ٦٥ شهيداً، وفي معركة قاقون (قضاء طولكرم) التي وقعت في الخامس من حزيران/ مايو، وفقد فيها الجيش العراقي ٤٥ شهيداً[٤٣].

إن هذه الأرقام تثبت، بما لا يقبل مجالاً للشك، بطلان مقولة "ماكو أوامر" في كل ما يتعلق بالمشاركة العراقية في الحرب، وتأثيرهم المباشر على سيرها في مناطق التماس التي تواجدوا فيها، ولا تقتصر منجزاتهم على هذا العدد من الشهداء فحسب، بل يمكن الإدعاء أن تواجدهم في الوقت المناسب منع تهجير عشرات القرى في مناطق وادي عارة، وشمالي قضاء جنين، بل ومدن جنين، وقلقيلية، وطولكرم، إذ يفيد شهود عيان جُمعت شهاداتهم: بأنه لولا تدخل الجيش العراقي وصده للهجمات الصهيونية لما كان باستطاعة سكان هذه القرى الصمود في أراضيهم[٤٤].

(٤٢) محمد عبدالرحمن عريف، شهادات عن الجيش العراقي في نابلس إبان النكبة.. بين حقيقة تاريخية ورواية مشوهة، مرجع سابق.

(٤٣) عبدالعزيز أمين عرار، معارك الجيش العراقي في حرب ١٩٤٨م، مرجع سابق.

(٤٤) محمد عبدالرحمن عريف، شهادات عن الجيش العراقي في نابلس إبان النكبة.. بين حقيقة تاريخية ورواية مشوهة، مرجع سابق.

وتؤكد هذه الشهادات حُسن معاملة الضباط والجنود العراقيين للسكان، لدرجة أنه في بعض المناطق التي كانت تعاني الشح الشديد بالأغذية، كان الجنود العراقيون يتقاسمون مع السكان الأغذية والمؤن، ولعل الاحتفال الوداعي المُهيب الذي نظمه سكان باقة الغربية لوداع الضباط والجنود العراقيين الذين رابطوا هناك حتى اتفاقيات الهدنة، وتسليم المثلث لإسرائيل، لهو الإثبات الدامغ على ما ربط الفلسطينيين وجنود الجيش العراقي الذين دافعوا عنهم من وشائج المودة والمحبة والتقدير، لا زالت الألسن في بلدة كفر ثلث ومحافظة قلقيلية تلهج بالذكر الطيب لما قام به الجيش العراقي ودوره في المعارك التي خاضها دفاعاً عن طيرة المثلث، وقلقيلية حيث أوعز للمناضلين الفلسطينيين بالهجوم على مستعمرة رمات هاكوفيش، وقدم الإسناد من خلال المدفعية المرابطة في صوفين، ولا زالت بعض الدبابات المدمرة عند أبواب المستعمرة الصهيونية كشاهد وذكرى، وقد دعاها بعض الكتاب الصهاينة بـ"الأيام العصيبة"(٤٥).

خروج القوات العراقية ومأساة تسليم منطقة المثلث لإسرائيل

منذ بداية عام ١٩٤٩م أخذت الدول العربية تعقد معاهدة وهدنة مع اليهود، وكانت البداية بين الجيشين المصري والإسرائيلي في جزيرة رودس يوم ٢٤ فبراير/ شباط ١٩٤٩م، ثم تلاها لبنان بعد شهر تقريباً في ٢٣ مايو/ آذار ١٩٤٩م، ثم تلتها الأردن في ٤ أبريل/ نيسان١٩٤٩م، ثم سوريا في ٢٠ يوليو/ تموز ١٩٤٩م، ولم يوقع العراق على اتفاقية الهدنة مع العدو، وانسحب الجيش العراقي في شهر مايو/ أيار عام ١٩٤٩م، وحل الأردن على قلة عدد جيشه أن يتولى خط الهدنة في القطاع العراقي، وأصبحت المنطقة الممتدة من الحدود السورية عند الُحمة حتى الحدود الدولية في العقبة(٤٦).

انسحب الجيش العراقي، بقرار واتفاق بين نظامي الأردن والعراق الهاشميين، وجاءت قوة أردنية لترابط في منطقة الجيش العراقي، ولم تستمر طويلاً وانتشرت من جديد حالة الخوف والهلع على مصير القرى والبلدات التي رابط فيها الجيش العراقي، واستلم الأردنيون هذه المنطقة لعدة أيام وتركوها، وبعد أن تيقن وجهاء القرى من خروج العراقيين، قرروا إعلان ولائهم للأردن، وقدموا مضابط للملك عبد الله يعلنوا فيها الولاء، وظنوا أن هذا الولاء سيساعدهم على الحفاظ على البقية

(٤٥) عبدالعزيز أمين عرار، معارك الجيش العراقي في حرب ١٩٤٨، مرجع سابق.

(٤٦) محمد عبدالرحمن عريف، الجيش العراقي بين سبعة "جيوش إنقاذ" عربية في فلسطين بعد قرار التقسيم ١٩٤٧م.

الباقيـة مـن البـلاد، بينمـا خـرج الجيـش العراقـي ومعـه بعـض الفلسـطينيين مـن قـرى عرعـرة وأجـزم وعـين غـزال، وأخـذوا جرحاهـم معهـم بعـد خروجهـم مـن فلسـطين[٤٧].

لقـد أدرك الفلسـطينيون أن منطقـة المثلـث سُـلمت بموجـب معاهـدة رودس، وتركـت مجموعـة قـرى فلسـطينية أمـام قدرهـا المحتـوم وتضـم (رأس العـين وكفـر بـرا، وكفرقاسـم، وجلجوليـة، وخريـش، والطيـرة، وقلنسـوة، والطيبـة، وباقـة الغربيـة، وعـارة وعرعـرة وكفـر قـرع) ومجموعهـا ٢٢ قريـة، وبعـد اتفاقيـة رودوس رجعـت القـوات الأردنيـة إلـى الشـرق كليـو متـراً مـن خـط سـكة الحديـد، وخضعـت منطقـة المثلـث العربـي لحكم عسـكري صهيونـي منـع فيـه أهـل البـلاد بالخـروج أو المبيـت خـارج قراهـم إلا بتصاريـح ولسـاعات محـدودة، وقوبلـت عمليـة انسـحاب الجيـش العراقـي، وحلـول الجيـش الأردنـي، بالذهـول! وشـعر النـاس باليـأس والإحبـاط، وأخـذوا يرسـلون الوفـود مـن طولكـرم وقلقيليـة وجنـين وعـارة وعرعـرة إلـى قيـادة الجيـش العراقـي في عمـان والمفـرق، وبعضهـم توجـه للملـك عبـد الله في مقـره بالشـونة الجنوبيـة معلنـين سـخطهم ومتسـائلين عـن مصيـر قُراهـم[٤٨].

كتـب المناضـل الوطنـي والقومـي بهجـت أبـو غربيـة: "هاجـت مشـاعر الفلسـطينيين حيـث يوجـد الجيـش العراقـي في مناطقهـم، خصوصـاً منطقـة طولكـرم وقلقيلية، وشـكلوا وفـوداً ذهبـت إلـى عمـان لمقابلـة قائـد الجيـش العراقـي نـور الديـن محمـود لتطلـب منـه اسـتمرار بقـاء الجيـش في مناطقهـم، لأن عـدد الجيـش الأردنـي قليـل ولا يسـتطيع إذا انتشـر في اسـتمرار بقـاء"[٤٩].

كان مـن نتائـج تسـليم منطقـة المثلـث، وانسـحاب الجيـش العراقـي أن حضـرت القـوة الأردنيـة ولكنهـا لـم تسـتمر وتراجعـت نحـو الضفـة الغربيـة، وبفعـل الأحـداث تم فتـح طريـق وادي عـارة الـذي كان مغلقـاً أمـام القـوات اليهوديـة بحضـور بـن غوريـون، الـذي ألقـى خطابـاً قـال فيـه مـا معنـاه: أن هـذا خـط حيـوي، والـذي يمـر مـن وادي عـارة، وقـد حاولنـا احتلالـه عسـكرياً بثمانيـة آلاف مـن الأرغـون، ولاحتـلال قريـة كفـر قـرع ثـم عـارة وعرعـرة، ولكـن قـوات عـارة وعرعـرة أرغمـت قواتنـا علـى الانسـحاب، ثـم حاولنـا احتلالـه عندمـا كانـت القـوات العراقيـة، ولكـن طائراتنـا أخبرتنـا أنـه حصـين، وهـا نحـن اليـوم نحتفـل باسـتلامه وحضـر اليهـود للإحتفـال، وامتـلأ الـوادي بالمحتفلـين[٥٠].

(٤٧) عبدالعزيز أمين عرار، معارك الجيش العراقي في حرب ١٩٤٨م، مرجع سابق.

(٤٨) محمد عبدالرحمن عريف، الجيش العراقي بين سبعة "جيوش إنقاذ" عربية في فلسطين بعد قرار التقسيم ١٩٤٧م.

(٤٩) عبدالعزيز أمين عرار، معارك الجيش العراقي في حرب ١٩٤٨م، مرجع سابق.

(٥٠) محمد عبدالرحمن عريف، الجيش العراقي بين سبعة "جيوش إنقاذ" عربية في فلسطين بعد قرار التقسيم ١٩٤٧م.

نعم بسبب انسحاب الجيش العراقي، هاجت مشاعر الفلسطينيين وشكلوا وفوداً ذهبت إلى عمان لمقابلة قائد الجيش العراقي نور الدين محمود، لتطلب استمرار بقاء الجيش في مناطقهم؛ لأن الجيش الأردني قليل ولا يستطيع بانتشاره حماية هذه المناطق، ولكن لم يمكنه أحد مكن اللقاء معه، وزاد الطين بلة أنهم علموا بأن اتفاقية رودس تسمح بضم أراض جديدة انسحب منها الجيش العراقي لليهود، وهي المسماة بأرض المثلث الفلسطيني، وشعر قادة الجيش العراقي بالألم وهو ما سيدفعهم لاحقاً لعمل ثورات وانقلابات كان سببها؛ شعورهم بالموقف المخزي لحكوماتهم في فلسطين، والتي أرسلتهم فقط كامتصاص لغضب الشارع العراقي[٥١].

وحول ما جرى في قرية قلنسوة، عند رحيل العراقيين منها، بين الضابط رفعت الحاج سري مادحاً دور أبناء فلسطين وتضحياتهم في الحرب، "اجتمع الناس أمام المقر العراقي إثر دعوة الضابط العراقي رفعت الحج سري الذي ذرف الدمع غزيراً على مرأى من الناس بقوله: أنصحكم أن تبقوا في بيوتكم، وعلى أرضكم، واقبلوا مصيركم بصبر وحكمة. لقد تقرر بيعكم لأعدائكم بعد تولي الملوك قيادتكم، إني عاجز أن أوفيكم قدركم وشجاعتكم، والأمانة تفرض علي أن أسجل أعمالكم"[٥٢].

وعلى أثر الحرب ونتائجها الوخيمة، أخذ الحكام العرب يتبادلون التهم فيما بينهم، فالأردن يتهم مصر بالتقصير، وأنه سلم منطقة بئر السبع والنقب، ولم يبق غير قطاع وشريط ضيق "قطاع غزة" والأردن يتعرض لهجوم من مصر وغيرها، حيث سلم مدينتي اللد والرملة وارتكبت فيهما مذبحة كبيرة، ويتحدث القائد الأردني عبد الله التل قائد معركة القدس عن قصور ومسؤولية الأمير عبد الله ومن معه من ضباط انجليز، بينما يدافع عسكري مجهول عن جيش العراق ومواقفه في جريدة الحوادث اللبنانية والذي نشر في كتاب (كيف ضاعت فلسطين)، وكتب القائد عمر علي دفاعاً عن جيش العراق ونشره في كتاب حول فرية الجيش العراقي:"ماكو أوامر" والتي نسبت للجيش العراقي أثناء انتصاره في معركة جنين، وأن أحد المناضلين الفلسطينيين طالب بمتابعة الهجوم العراقي واحتلال حيفا، ولكن القائد نوح رد عليه: "ماكو أوامر"، وحفظها الفلسطينيون واعتبروها عيباً على الجيش العراقي. وهنا يبقى على الرغم من كل هذه الظروف فقد كانت مشاركة العراقيين، حيثما أتيح لهم ذلك، مؤثرة وفعالة وساهمت بالإبقاء على قطاعات واسعة عربية ومنعت تهجيرها[٥٣].

(٥١) عبدالعزيز أمين عرار، معارك الجيش العراقي في حرب ١٩٤٨م، مرجع سابق.

(٥٢) محمد عبدالرحمن عريف، الجيش العراقي بين سبعة "جيوش إنقاذ" عربية في فلسطين بعد قرار التقسيم ١٩٤٧م.

(٥٣) محمد عبدالرحمن عريف، الجيش العراقي بين سبعة "جيوش إنقاذ" عربية في فلسطين بعد قرار التقسيم ١٩٤٧.

بعد أن تيقن وجهاء القرى من خروج العراقيين، قرروا إعلان ولائهم للأردن، وقدموا مضابط للملك عبد الله يعلنون فيها الولاء، وظنوا أن هذا الولاء سيساعدهم على الحفاظ على البقية الباقية من البلاد، بينما خرج الجيش العراقي ومعه بعض الفلسطينيين من قرى عرعرة، وأجزم، وعين غزال، وأخذوا جرحاهم معهم بعد خروجهم من فلسطين. لقد أدرك الفلسطينيون أن منطقة المثلث سلمت بموجب معاهدة رودس، وتركت مجموعة قرى فلسطينية أمام قدرها المحتوم وتضم: رأس العين، وكفر برا، وكفر قاسم، وجلجولية، وخريش، والطيرة، وقلنسوة، والطيبة، وباقة الغربية، وعارة وعرعرة وكفر قرع ومجموعها ٢٢ قرية، وبعد اتفاقية رودوس رجعت القوات الأردنية إلى الشرق كليو متر من خط سكة الحديد، وخضعت منطقة المثلث العربي لحكم عسكري صهيوني منع فيه أهل البلاد بالخروج أو المبيت خارج قراهم إلا بتصاريح ولساعات محدودة[٥٤].

كتب المناضل الوطني والقومي بهجت أبو غربية: "هاجت مشاعر الفلسطينيين حيث يوجد الجيش العراقي في مناطقهم، خصوصاً منطقة طولكرم وقلقيلية، وشكلوا وفوداً ذهبت إلى عمان لمقابلة قائد الجيش العراقي نور الدين محمود لتطلب منه استمرار بقاء الجيش في مناطقهم، لأن عدد الجيش الأردني قليل ولا يستطيع إذا انتشر في استمرار بقاء[٥٥]. وعن هذه الوفود تذكر إحدى المصادر: "أخذ والدي الدفتر الذي يحتوي على إحصاء اللاجئين في عرعره، وسافر إلى عمان وأخذني معه، كما اصطحب معه خليل الشيخ عبد من عرعره في صيف ١٩٤٨م، وتم ترتيب زيارة وتوجهنا لقصر رغدان وهناك قابلنا الملك عبد الله في حديقة القصر، وكان معه هزاع المجالي رئيس الديوان.. وقابلت الملك وأنا أحمل مسدساً محشواً بالرصاص، وألقيت كلمة وتكرر ذهابه لجلالة الملك، ورجوه أن يحافظ على بلدهم، فرد عليهم "إنّ أنس مكة لن أنس بلدكم عارة وعرعرة"، ونشر هذا النطق السامي على صفحات الجرائد، وجاءت الأنباء تحمل خبر تسليم قرى المثلث لليهود بموجب اتفاقية الهدنة في رودس، فأعلن أهل القرى الحداد وألبسوا السواد، ونصبوا المناحات في البيوت والشوارع، وحزنت أمهات المناضلين اللاتي سيودعن أبناءهن"[٥٦].

وبفعل الأحداث تم فتح طريق وادي عارة الذي كان مغلقاً أمام القوات اليهودية بحضور بن غوريون الذي القى خطاباً قال فيه: ما معناه أن هذا خط حيوي والذي

(٥٤) عبدالعزيز أمين عرار،خريش، مرجع سابق، ص٨٩.

(٥٥) بهجت أبو غربية، في خضم النضال، ص١٢٩.

(٥٦) محمد محفوظ خليل يونس، عرعرة وعارة،ص١٢٥.

يمر من وادي عارة وقد حاولنا احتلاله عسكرياً بثمانية آلاف من الأرغون ولاحتلال قرية كفر قرع ثم عارة وعرعرة، ولكن قوات عارة وعرعرة أرغمت قواتنا على الانسحاب ثم حاولنا احتلاله عندما كانت القوات العراقية ولكن طائراتنا أخبرتنا أنه حصين، وها نحن اليوم نحتفل باستلامه وحضر اليهود لاحتفال وامتلأ الوادي بالمحتفلين[٥٧].

وحول تسليم المثلث، من قبل ملك الأردن، بين القائد الأردني عبد الله التل، هذه الملابسات، وجاء بوثائق وتفصيلات تبين تسليم البلاد من قبل الملك عبد الله الذي حصل على تفويض من الجيش العراقي، ونظام الحكم في العراق، ولكن لماذا لم يفاوض العراق؟ السبب هو مجاراة المعارضة العراقية والمزاج الشعبي حيث كانت المعارضة قوية[٥٨].

كان العراقيون يعارضون التفاوض مع اليهود، ولكنهم أمام موافقة الدول العربية عقد هدنة مع اليهود وشعورهم بإمكانية التآمر عليهم من قبل الملك عبد الله، حيث وصلتهم أخبار أن الملك عبد الله يخطط مع إسرائيل للانقضاض على القوات العراقية المرابطة في منطقة المثلث الفلسطيني، وقد أرسل إلياهو ساسون رسالة للملك عبد الله، بين فيها خطته للانقضاض على الجيش العراقي، إذا بقي مرابطاً في منطقة المثلث الفلسطيني(نابلس وأقضيتها، جنين وطولكرم، وقلقيلية) وقد تسربت الأخبار للعراقيين الذين اختاروا أخيراً الانسحاب[٥٩].

ثم أنها كشفت العبث بالخرائط، وعدم تقدير فداحة النكبة، وقد ادعى الملك أنه لم يكن باستطاعته الدفاع عن هذه المنطقة، وبالغ في خوفه بسبب نصائح كلوب باشا، مع أن احتمال لجوء اليهود لحرب كان ضعيفاً، وكان بإمكان الأردن، والعراق، المحاربة تحت قيادة مخلصة مكونة من ٣٠ ألف جندي[٦٠].

وبعد سقوط اللد والرملة، بتقصير وإهمال الجيش الأردني، الذي يقوده القائد البريطاني كلوب باشا، حاول عبد الكريم قاسم أن ينجد قرية المزيرعة، وحمل إليها ٢٥٠٠ طلقة على بغل، ولكنه وجدها قد سقطت، وانسحب قائد القوة العراقية إلى

(٥٧) محمد محفوظ خليل يونس، عرعرة وعارة،ص١٢٦.

(٥٨) عبدالله التل، كارثة فلسطين،ص٤٧٢.

(٥٩) مما جرى في قرية الطيرة الصعبية حسبما تناوله عبد الرحيم عراقي في كتابه (لا تخف) وتوقف اطلاق النار في ١٩٤٨/٤/٣م وكان العراقيون ينتحبون كالنساء وهم يقولون: ماذا نقول لأمهاتنا؟ وقد أوصيننا أن لا نعود الا بتحرير فلسطين وإرجاع اللاجئين لبلادهم. أنقول بعناها أم سلمناكم؟ الله واياكم يا أهل الطيرة والله انكم رجال...جاء الجيش الأردني ورفع العلم أياما وانسحب إلى الشرق وخضعت الطيرة للحكم العسكري. أنظر، عبدالله التل، كارثة فلسطين،ص٥٢٥.

(٦٠) عبدالله التل، كارثة فلسطين،ص٥٣٥، ٥٣٦.

كفر قاسم، وكان ينشج ويقول "هكذا هي الأوامر"، وينقل رواة عن المناضل البعثي الدكتور رفعت عودة من بلدة بديا؛ أن ضباطاً عراقيين اجتمعوا ذات يوم في بيته وهو معهم، وكان بينهم عبد الكريم قاسم، ووضعوا مسدساتهم على الطاولة وأيديهم فوق المسدسات، وأقسموا على قتل الوصي عبد الله، اتفقوا على أن ينفذ العملية أي منهم متى سنحت الفرصة، وفعلاً قتلوه بخطيتنا!"[٦١]، لقد كان في (كوفيش) ثم جماعة أنيط بها درء اليهود الأصاغر[٦٢].

تحولت العبارة لموتيف يتردد عندما يتم وصف تصرف الجيش العراقي في فلسطين، لا سيما وأن العبارة هي عبارة عراقية قالها، حسب الرواية الشعبية، أحد القادة الميدانيين للجيش العراقي لمجموعة من المدنيين في منطقة جنين، الذين طالبوه باستغلال الاندفاع العراقي بعد صد القوات اليهودية عن جنين، وتطوير هجوم مضاد يسترد ما كان قد أحتل من قرى شمالي قضاء جنين كالمزار ونورس وزرعين من الشرق، واللجون والمنسة من الغرب.

الخاتمة وأهم النتائج

ما من شك في أن عملية نسب القصور العربي في فلسطين إلى الجيش العراقي من خلال هذه العبارة المشهورة فيها من التجني والظلم التاريخي الشيء الكثير، ولا سيما أن هذه القوات (إن كانت قوات المتطوعين والأفواج العراقية التي شاركت في جيش الانقاذ... كان لها الفضل الكبير في الحفاظ على المناطق التي رابطت فيها، ومنع القوات اليهودية من دخولها كمنطقة المثلث العربي... الممتدة من كفر قاسم في الجنوب، وحتى مقيبلة وصندلة في الشمال، وقد خاض الجيش العراقي في سبيل الحفاظ على هذه المنطقة، على الرغم من القسريات الهائلة والقيود الممضة، معارك حامية الوطيس سقط فيها عشرات الشهداء العراقيين تشهد عليهم مقابر الطيرة وطولكرم وجنين وكفر قرع وكفر قاسم وقلقيلية وعارة وعرعرة، هذا عوضاً عن متطوعين عراقيين متفرقين سقطوا في الدفاع عن قرية الشجرة قرب الناصرة... وعن قرى عين غزال، إجزم وجبع في منطقة الكرمل لدى الساحل الجنوبي لحيفا.

وعليه فقد توصلت الدراسة للعديد من النتائج، أهمها:

(٦١) فؤاد عبدالنور، المثلث الأرض والإنسان، ص١٤.

(٦٢) عبدالرحيم عراقي، لا تخف،ص٣٠٩،٣١٠.

لقد شارك العراق (في إطار قوات المتطوعين التي قادها فوزي القاوقجي) بثلاثة أفواج عراقية هذا إضافة إلى ثلاثة من الجنرالات (طه الهاشمي، إسماعيل صفوت ونور الدين محمود) الذين كانوا أعضاء في اللجنة العسكرية للجامعة العربية والتي أشرفت على تجنيد جيش الإنقاذ وتسليحه وإمداده بالذخيرة.

يجب التأكيد على أن حجم المشاركة العسكرية العراقية في فلسطين عام ١٩٤٨م .. لم يرتق إلى المستوى المطلوب، ليس بسبب قوى وقدرات الجنود العراقيين ومدى جاهزيتهم للقتال، وإنما بسبب تردد الأوساط السياسية العراقية العليا وإحجامها عن إرسال أفضل الوحدات العسكرية المقاتلة وامتناعها عن إرسال قوات جوية كافية للدفاع عن القرى والمدن الفلسطينية، هذا فضلاً عن ضغوطات مارستها بعض النخب العراقية (في الجيش والحكومة) والتي عارضت الميول القومية العربية وطورت نزعات محلية انعزالية وشعوبية، ورأت في أي تدخل عراقي في فلسطين أو أي قطر عربي آخر تبديداً واستنزافاً لقدراته ومقدراته.

لقد شارك زُهاء ٨٠٠ عراقي في قوات المتطوعين العرب، في حين بلغ عدد جنود الجيش العراقي، في قمة مشاركته، في المرحلة الثانية، عشرة آلاف جندي، وعلى الرغم من كل هذه الظروف، فقد كانت مشاركة العراقيين، حيثما أتيح لهم ذلك، مؤثرة وفعالة وساهمت بالإبقاء على قطاعات واسعة عربية ومنعت تهجيرها. في المرحلة الأولى شارك المتطوعون العراقيون بقيادة المقدم علي غالب عزيز في معركة رأس العين الأولى (الثامن من آذار/ مارس ١٩٤٨م)، حيث انتزعوا منطقة العيون ومنشآت المياه من أيدي البوليس البريطاني ومنعوا تسليمها لقوات الهاجاناه (كما جرى في حالات أخرى كثيرة قام الإنجليز فيها بتسليم منشآت حيوية لليهود). وقد خسر العراقيون في هذه المعركة شهيداً واحداً وأصيب جندي آخر بجراح متوسطة نقل على أثرها للعلاج في مشافي يافا.

كذلك شارك بعض المتطوعين العراقيين، في هذه المرحلة، في معركة كفر قرع، حيث نظّم أربعة ضباط منهم وضابطان سوريان آخران المعركة التي خاضها أبناء تلك القرية يوم الثامن من أيار/ مايو وصدوا فيها هجوماً مركزاً لقوات الهاجاناه أرادت من خلاله الاستيلاء على كفر قرع وممر وادي عارة الاستراتيجي المهم، كما تكبدت قوات المتطوعين العراقيين خسائر كبيرة في الأرواح (١٧ شهيداً) في هجوم جيش الإنقاذ على مستوطنة مشمار هعيمق..أما في المرحلة الثانية للحرب فقد

بدأت بدخول وحدات من الجيش العراقي النظامي فلسطين في الخامس عشر من أيار/ مايو ١٩٤٨م عن طريق جسر المجامع واشتباكها مباشرة مع القوات اليهودية في كوكب الهوى وجيشر، حيث استشهد في هاتين المعركتين ٤٠ جندياً عراقياً، ومن ثم تقدم باتجاه مرج بن عامر وقضائي جنين وطولكرم و قضائي يافا والرملة، وفي أثناء انتشاره في هذه الجبهة التي زاد طولها عن ١١٠ كم، خاض معركة الطيرة - رامات هكوفيش في الرابع والعشرين من أيار/ مايو ١٩٤٨م، والتي سقط فيها ١٢ شهيداً عراقياً ثم معركة راس العين الثانية في ١٩٤٨/٥/٣٠م، والتي فقد فيها شهيدان ومعركة جنين والمزار في الفترة الواقعة بين ٢-٤ حزيران والتي فقد فيها العراقيون ٦٥ شهيداً وفي معركة قاقون (قضاء طولكرم) التي وقعت في الخامس من حزيران/ يونيو، وفقد فيها الجيش العراقي ٤٥ شهيداً.

ناهيك عن صدامات واشتباكات متفرقة شارك فيها العراقيون في مجدل يابا (فقدوا فيها ٤ شهداء) وقلقيلية (٤ شهداء) وطولكرم (٨ شهداء) وكفر قاسم (٩ شهداء) وباقة الغربية (شهيد عراقي واحد) وعارة (شهيد عراقي واحد)، كما وفقدت القوة الجوية العراقية خمسة طيارين تم إسقاط طائراتهم ومنهم قائد سرب برتبة عقيد. وبذلك يكون مجموع ما فقدته القوات العراقية وقوات المتطوعين العراقيين في فلسطين ١٣١ شهيداً، هذا عوضاً عن مئات الجرحى الذين سقطوا على خطوط الجبهة الطويلة التي تواجد فيها العراقيون.

إن هذه الأرقام تثبت بما لا يقبل مجالا للشك بطلان مقولة "ماكو أوامر" في كل ما يتعلق بالمشاركة العراقية في الحرب وتأثيرهم المباشر على سيرها في مناطق التماس التي تواجدوا فيها. ولا تقتصر منجزاتهم على هذا العدد من الشهداء فحسب بل يمكن الإدعاء أن تواجدهم في الوقت المناسب منع تهجير عشرات القرى في مناطق وادي عارة وشمالي قضاء جنين، بل ومدن جنين وقلقيلية وطولكرم. إذ يفيد شهود عيان، تم جمع شهاداتهم... بأنه لولا تدخل الجيش العراقي وصده للهجمات الصهيونية لما كان باستطاعة سكان هذه القرى الصمود في أراضيهم.

أن هذه الشهادات تؤكد أيضاً حسن معاملة الضباط والجنود العراقيين للسكان لدرجة أنه في بعض المناطق التي كانت تعاني الشح الشديد بالأغذية، كان الجنود العراقيون يتقاسمون مع السكان الأغذية والمؤن... ولعل الاحتفال الوداعي المهيب الذي نظمه سكان باقة الغربية لوداع الضباط والجنود العراقيين الذين رابطوا هناك حتى

اتفاقيات الهدنة وتسليم المثلث لإسرائيل لهو الإثبات الدامغ على ما ربط الفلسطينيين وجنود الجيش العراقي الذين دافعوا عنهم من وشائج المودة والمحبة والتقدير.

عندما توقفت المدافع وتوقف إطلاق النار، وانسحبت القوات العراقية من منطقة المثلث العربي، وحلت بدلاً منها قوات أردنية يقودها كلوب باشا، وهو ضابط بريطاني، ويلقب بأبي حنيك وكانت مأساة المثلث حينما فاوض الجيش الأردني نيابة عن الجيش العراقي حيث رفضت القيادة العراقية التفاوض مع اليهود بحجة الشرف العسكري الذي يمنعها ولكن السبب الحقيقي هو قوة المعارضة العراقية واحتجاج العراقيين وسخطهم، ولهذا السبب قام الملك عبدالله وحكومته بالتفاوض مع اليهود.

لقد أشفق الجيش العراقي على بضعة آلاف من الفلسطينيين من قرى حيفا، الذين كان عددهم خمسة آلاف فلسطيني عند بداية وصولهم إلى العراق، وأصبحوا عشرين ألفاً، قد جاءوا من قرى منطقة مثلث الكرمل بعد استيلاء العصابات الصهيونية عليها. إذ تعاطفت القوات العراقية التي شاركت في حرب فلسطين، مع مأساة الفلسطينيين، ورحبوا بهم لكي يكونوا ضيوفاً على الحكومة العراقية. ونقلت العائلات الفلسطينية بآليات عراقية إلى بغداد، بينما بقي الشباب منهم يقاتلون تحت إمرة الجيش العراقي، والتحقوا بعد انتهاء الحرب بعائلاتهم، وبعد وصول اللاجئين الفلسطينيين إلى العراق، أصبحوا تحت رعاية وزارة الدفاع العراقية، حيث تم توزيع سكنهم في المقرات الحكومية، وعلى مناطق بغداد والموصل والبصرة.

لقد صدر في عام ١٩٦٤م قراراً بمعاملة الفلسطينيين في العراق معاملة العراقيين في الوظائف الحكومية من حيث الرواتب والعلاوات. وبعد وصول حزب البعث إلى السلطة عام ١٩٦٨م، أصدر مجلس قيادة الثورة العراقي، قراراً بإنشاء مجمعات سكنية شعبية تتوافر فيها كافة الشروط الصحية، في منطقة الدورة، وتبقى هذه الدور مُلكاً للدولة يتمتع الفلسطيني بمنفعتها مادام موجوداً في العراق، وبمساواة الفلسطينيين بالعراقيين عند التعيين والترفيع، إلى حين عودتهم إلى ديارهم.

صدر قرار آخر في عام ٢٠٠١م نص على معاملة الفلسطيني المقيم إقامة دائمة في العراق، معاملة العراقيين في جميع الحقوق والواجبات، باستثناء الحق في الحصول على الجنسية العراقية. إلا أن الفلسطينيين في العراق لم يقدر لهم الاستفادة من القرار سوى عامين، إذ احتلت العراق بعد ذلك، وفقدوا مع الاحتلال جميع المكاسب التي حصلوا عليها منذ لجوئهم.

انتخابات المجلس البلدي فترة الحكم الأردني ١٩٥٠م - ١٩٦٧م

ولاء محمد حسن بربراوي[١]

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الخلق والمرسلين، سيدنا محمد عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم، وعلى اله وصحبه أجمعين، أما بعد:

شكلت انتخابات المجلس البلدي مظهراً للوعي السياسي، في فترة وحدة الضفتين، وبما ان الانتخابات المحلية كان لها أهمية كبيرة في تعزيز دور الوطن والمواطن في إثبات وجوده، في ظل وجود حكم أردني الذي أوجده الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٤٨م .

حيث كان الشعب الفلسطيني لا يستطيع تقرير مصيره بنفسه جراء الأوضاع السائدة، فضم الشعب الفلسطيني تحت السيادة الأردنية، وأصبح جزء لا يتجزأ من المملكة الأردنية الهاشمية، فما كان على الشعب الفلسطيني إلا أن يتعايش مع الأوضاع الراهنة، وفي نفس الوقت إثبات وجوده، وخاصة في ظل تعاقب رؤساء البلديات في هذه الفترة ، فهل هذا الشيء يدلل على أن هنالك جواً من الديمقراطية بالرغم من الوجود الأردني من جهة، واحتلال الإسرائيلي من جهة اخرى؟ وما هي الظروف التي أدت إلى تعاقب ستة رؤساء في فترة زمنية محدودة، هل هذا يشير إلى سوء الأوضاع السياسية والأمنية أو حتى الاقتصادية والاجتماعية في تلك الفترة؟ أو أنه كان هنالك اهداف من إجراء هذه الانتخابات وتشكيل اللجان؟ وأنا كباحثة، ومن خلال الإطلاع على الوثائق، عثرت على وثائق كانت تدلل على أن الهدف من إجراء الانتخابات هو جمع الضرائب وجبايتها من المواطنين، ومحاولة جمع أي عائد أو رسوم مهما كان نوعه، فهل هذا الشيء يكشف عن سوء أوضاع إقتصادية بشكل خاص، وأوضاع البلاد بشكل عام؟

هدف هذا البحث أيضاً إلى التعرف من خلال السجلات ووثائق بلدية نابلس إلى انتخابات المجلس البلدي في نابلس، فتمت الإشارة إلى فترة حكم عبد المنعم عبد الهادي الذي حضر لإنعقاد مؤتمر رؤساء البلديات الموحد في الضفة الغربية،

(١) محاضرة في التاريخ

الذي هدف إلى إدخال التعديلات الأزمة على قانون البلديات لإتاحة فرصة للبلديات في تسهيل أمورها بدون الرجوع إلى السلطة المركزية، فهل من خلال هذه التعديلات استطاعت البلديات القيام بدورها الفعال في الأمور السياسية والاقتصادية والاجتماعية، أم اقتصر دورها على تقديم الأمور الخدماتية للمواطنين، وتنفيذ ما تريده الحكومة الأردنية؟ وما هو رد الحكومة الأردنية على التعديلات المقترحة ؟

كما أشار البحث إلى اللجان التي تم تشكيلها للإشراف على سير العملية الانتخابية، وأهم الإشكاليات التي واجهتها، وتم تسليط الضوء على انتخابات عام ١٩٦٣م، التي حاز فيها حمدي كنعان على أغلبية الأصوات، وتولى رئاسة بلدية نابلس، واستمراره في الرئاسة حتى عام ١٩٦٩م، نتيجة لوقوع حرب عام١٩٦٧م، وتم التطرق في البحث للإشكاليات التي واجهت حمدي كنعان في فترة رئاسته، وختم البحث بخاتمة تحوي أهم ما تم التوصل إليه من خلال البحث، وقائمة بالمصادر والمراجع.

مؤتمر رؤساء البلديات الضفة الغربية الموحد في نابلس

(قانون البلديات)

تمهيد

تمحورت السياسة الأردنية في الضفة الغربية على عدة محاور منها: التدابير، والإجراءات الإدارية المتلاحقة من أجل ترسيخ عملية الحكم، مثل إلغاء الحكم العسكري، وإيجاد إدارات مدنية، وتعيين حاكم إداري عام للضفة الغربية، وإلحاق جميع الموظفين الحكوميين في الضفة إلى الحكومة الأردنية، فمن خلال الاطلاع على تاريخ البلديات، في الضفة، تبين أن الهدف من إيجاد البلديات، ما هو إلا وسيلة لبسط السيطرة والنفوذ، من قبل الحكومة، أو الجهة المخولة بذلك، فمثلاً في عهد الدولة العثمانية، تم إصدار قانون البلديات الأول في عام ١٨٧٧م، من قبل البرلمان العثماني الذي كان يعتبر الأساس القانوني، والمرتكز التنظيمي لتركيبة المجالس البلدية، مع إعطاء صلاحيات للمتصرف أو القائم مقام على مجمل نشاطات سواء كانت من ناحية الإشراف أو الرقابة في حين إسناد بعض المهمات الخدماتية للمجلس البلدي بشكل محدود جداً، واستمر هذا القانون في عهد الانتداب البريطاني، مع إجراء بعض التعديلات عليه، في عام ١٩٢٦م وهي التعديلات الخاصة والمتعلقة بشروط الانتخاب، والترشيح. وفي عام ١٩٣٤م أصدرت الحكومة الانتدابية قانون البلديات ليصبح المرجع الوحيد المعتمد لتنظيم عمل البلديات، ومنح السلطة المركزية، ممثلة بالمندوب السامي، وحاكم اللواء، الصلاحيات الواسعة في مختلف الجوانب التنظيمية والتنفيذية لعمل المجلس البلدي، وبعدها أصبحت الضفة الغربية، بمحافظاتها الثلاث (نابلس، والقدس، والخليل) جزءاً من المملكة الأردنية ١٩٥٠م [٢].

باشرت الأردن فيما بعد بتطبيق أحكام الدستور الأردني، والقوانين الأردنية، ومن ضمنها القوانين المتعلقة بالمجالس المحلية المستمد من قانون البلديات لعام ١٩٣٤م، الذي أبقى البلديات في وضع سيئ للغاية، وأعقبه، في عام ١٩٥١م، إصدار قانون أردني معدل لقانون البلديات ١٩٣٤م الذي نص على استبدال جميع الإشارات الواردة في قانون الانتداب، مثل حكومة الانتداب، والمندوب السامي، واستبدالها

(٢) الجرباوي، علي، دور البلديات في فلسطين-الدولة، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ٣، العدد٩، ١٩٩٢، ٣٦.

بحكومة المملكة الهاشمية، ومجلس الوزراء، ووزير الداخلية والمتصرف، فما يجدر الإشارة إليه من خلال هذه التعديلات، أو الإجراءات الأردنية ما هي إلا سياسة لتثبيتها في الضفة الغربية، وفرض سيادتها ونفوذها فيها [٣].

ونتيجة للأوضاع الراهنة فقد تقرر انعقاد مؤتمر مجالس البلدية في دائرة بلدية نابلس يوم السبت الموافق ١٩٥٤/٤/٣م، وكان ذلك بحضور رؤساء مجالس البلديات، باستثناء رئيس بلدية بيت ساحور(جريس قميصة)، ورئيس بلدية السلط (عبدالله الداود) اللذين اعتذراً عن عدم الحضور، ولكن تم تأييدهما لقرارات المؤتمر[٤].

وفي بداية المؤتمر، تقرر أن يرأس الاجتماع السيد نعيم عبد الهادي، رئيس بلدية نابلس، وأن يقوم بأعمال السكرتارية نبيه البيطار(سكرتير بلدية نابلس) [٥].

فكان فحوى هذا المؤتمر هو إدخال بعض التعديلات على مشروع البلديات الموحد، فتقرر رفع المذكرة لرئيس مجلس الوزراء، ورئيس مجلس الأعيان، ورئيس مجلس النواب، ووزير الداخلية للنظر فيها، ومن هذه التعديلات:

المادة رقم ٨٦(٢) وهذه المادة تنص على إعلان المناقصات، فكان التعديل المضاف هو الاستعاضة عن كلمتي "قرره المتصرف" بالكلمات التالية "يقرره وزير الداخلية لكل بلدية، "فكانت الغاية من هذا التعديل هو إتاحة الفرصة للبلديات لعقد مقاولات تتناسب ميزانيتها وإمكاناتها حسبما يراه مناسباً وزير الداخلية، دون الرجوع للمتصرف الموافقة عليها، لعل ذلك يساعد في تسهيل المعاملات والإجراءات القانونية [٦].

المادة رقم ٩٠(١) وتنص المادة على تخويل مجالس البلديات صلاحيات وضع الأنظمة، وكان هذا التعديل ينص على إعادة العبارة "وأن يعرض بموجبها أية ضرائب أو رسوم أو عوائد من أي شخص في سبيل تلك الغاية، "هذه العبارة كانت قد حذفت من قبل مجلس الأعيان فكان المؤتمر يعلق أهمية كبرى على إعادة هذا النص لما له من أهمية، فهو يعطي البلديات صلاحية فرض، وجباية رسوم الأسواق وغيرها، وإسترداد بعض النفقات التي تتكبدها البلديات على إنشاء الأرصفة، والصرف الصحي، وفتح الشوارع وغيرها، فهذا البند تم الإشارة إليه لأهميته [٧].

(٣) مقبل، رائد، اثر انتخابات الهيئات المحلية الفلسطينية في تفعيل المشاركة السياسية ٢٠٠٤م-٢٠٠٩م، (فلسطين، جامعة النجاح، ٢٠١٠م)،٤٥.

(٤) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/١٨، التصنيف ٨، ١٩٥٤/٤/٤، ٢/٠٠.

(٥) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/١٨، التصنيف ٨، ١٩٥٤/٤/٤، ٣/٠٠.

(٦) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/١٨، التصنيف ٨، ١٩٥٤/٤/٤، ٢.

(٧) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/١٨، التصنيف ٨، ١٩٥٤/٤/٤، ٢.

١٠/الذيل الخامس ، المادة ١٩ فقرة ه"٣" وهذه المادة تنص على إلغاء ما جاء في آخر فقرة ه التي تنص كما يلي: "لما إذا احتوت ورقة الانتخاب على الأصوات تزيد على عدد الأعضاء الذين يراد انتخابهم، فيكتفى بشطب العدد الزائد بالتسلسل من أسفل الورقة"، والاستعاضة عنها بفقرة ترقم ه"٢" وتنص كما يلي:" أو تحتوي على أصوات تزيد على عدد الأعضاء الذين يراد انتخابهم"(٨).

والسبب في ذلك يعود إلا إن أوراق انتخاب أعضاء المجالس البلدية تكون كافة أسماء المرشحين مطبوعة عليها، وكل ما يفعله الناخب، إنما هو وضع إشارات تجاه أسماء من يريد انتخابهم، في الحالة هذه لا ذنب لمن جاءت أسماؤهم في آخر الورقة حتى يشطبوا كلما زاد العدد المؤشر عليه من قبل الناخب، ويكفي ما في هذا من إجحاف بحق الذين وردت أسماؤهم في نهاية الورقة، وهذا يختلف عن الانتخابات التي تكتب أسماء المنتخبين فيها كتابة، لا إشارة تجاه أسماء مطبوعة كما هو الحال في البلديات(٩).

هذه البنود تمت الإشارة إليها لأهميتها، ولكن هنالك مواد أخرى تم الإشارة إليها في قائمة الملاحق التي تم ذكرها في مشروع قانون البلديات، وتمت إضافة التعديلات عليها، ورفعها لجلالة الملك الأردني للنظر فيها، ونلاحظ، من خلال هذه التعديلات على المواد، صرامة القوانين المفروضة على البلديات من أجل تحقيق غاياتها وأهدافها، وفرض الرقابة والتبعية للحكومة الأردنية من أجل تنفيذ سياساتها، سواء كان ذلك من خلال جمع الضرائب من السكان بأي طريقة كانت، وأيضاً تضييق على البلديات؛ من أجل أن يكون الاعتماد الكامل على الحكومة في جميع قراراتها، سواء كانت القرارات مهمة، أو غير ذلك .

المذكرات والكتب المتبادلة بين الحكومة الأردنية والبلدية

وبعد ذلك تم إرسال مذكرة لصاحب جلالة الملك حسين بن طلال، من قبل رؤساء بلديات الضفة الغربية، وكان عبارة عن مذكرة عتاب وإعراب عن شديد إخلاصهم وولائهم لعرشكم، مؤكدين على حرصهم الشديد لمصلحة مواطنيهم مما حدا بهم لعقد مؤتمر في مدينة نابلس في يوم الأحد الموافق ٣١/كانون الثاني/١٩٥٤م، وذلك للبحث في التعديلات الرئيسية التي أدخلها المجلس على مشروع قانون البلديات الموحد، والذي اعتقد رؤساء البلديات أنه مجحف ولا يتمشى مع المصلحة العامة(١٠).

(٨) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/١٨، التصنيف ٨، ١٩٥٤/٤/٤، ٤.

(٩) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/١٨، التصنيف ٨، ١٩٥٤/٤/٤، ٤.

(١٠) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/١٨، التصنيف ٨، ١٩٥٤/٤/٤، ٢/٠٠

كانت هذه المذكرة تتضمن مسألتين رئيستين وهامتين، مما رأى مؤتمر رؤساء البلديات وجوب إعادة النظر فيها على ضوء الحق، والأصول، والمصلحة العامة، وأول هاتين المسألتين:

أولاهما: ما كان يتعلق بإنهاء دورات كافة المجالس البلدية، رغماً عن عدم انقضاء مدتها القانونية، وإجراء الانتخابات لجميع المجالس البلدية في المملكة خلال أربعة أشهر، من تاريخ نفاذ أحكام القانون في وقت واحد، وثانيتهما إناطة حق انتخاب رؤساء المجالس بأعضاء المجالس ذاتها.

فكانت المسألة الأولى، من وجهة نظر المؤتمرين هي أن النصوص كانت مخالفة لمبادئ التشريع المتعارف عليها، والتي تقضي دائماً باعتبار الإجراءات، التي تتم بموجب أي قانون، مرعية نافذة وسارية، وكأنها صادرة بموجب أي آخر معدل للقانون التي تكون تلك الإجراءات قد تمت بموجبه ولا سيما أنه في حالة انتخاب المجالس البلدية فقد جاءت مؤهلات الناخب، والمنتخب، ومدة دورات المجالس، وطريقة الانتخاب، في القانون الموحد الجديد ذات الأسس التي كانت عليها في قانون البلديات الفلسطيني المعمول به، والتي تمت إجراءات السابقة بموجبه دون تغيير[11].

هذا من جهة التشريع وأصوله، أما من ناحية المصلحة العامة، والعدل فيقتضي أن تبقى المجالس البلدية، التي تم انتخاب أعضائها من قبل الناخبين المعنيين إلى أن تنتهي المدة التي نص عليها القانون والتي اختار الشعب ممثليه في البلديات لخدمته خلالها، وذلك كي تتمكن من انجازها المشاريع التي باشرتها، والتي وضعت برامجها لإتمامها خلال مدة دورتها[12].

أما فيما يتعلق باختيار الرئيس فيرى المؤتمرون، أن انتخاب الرئيس، من قبل الأعضاء الذين قد لا يتجاوز عددهم ثمانية، سوف لا يأتي في كثير من الأحيان بالأصلح من بين الأعضاء للقيام بأعباء الرئاسة، وسيكون الرئيس المنتخب، على هذه الطريقة، إذا لم يجمع على انتخابه، مجبراً على التمشي وفق لرغبات منتخبيه التي قد تكون في بعض الأحيان مخالفة حسب اجتهاده للصالح العام[13].

وكان المؤتمرون يرجون من خلال هذه المذكرة، أن تبقى صلاحية اختيار الرئيس لمجلس الوزراء، وأن يكون لديهم حرص على اختيار الأصلح من بين الأعضاء،

(١١) سجلات بلدية نابلس،نفسه،٢/٠٠.

(١٢) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/١٨، التصنيف ٨، ١٩٥٤،٢/٤/٤

(١٣) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/١٨، التصنيف ٨، ١٩٥٤/٤/٤، ٢/٠٠.

بعد أن يأخذ بعين الاعتبار شخصية كل عضو، وماهية مؤهلاته، أو أن يترك أمر اختيار الرئيس للناخبين فينتخبون الرئيس انتخاباً مباشراً مستقلاً عن انتخاب هيئة أعضاء المجلس، كما هو الحال في الولايات المتحدة الأمريكية، وغيرها من مدن العالم المتمدن.

لقد تم توجيه كتاب إلى وزير الداخلية في عمان، من قبل رئيس البلدية نعيم عبد الهادي، وأعضاء اللجنة الانتخابية، فكان الكتاب يتضمن مجموعة من الاستفسارات عن الحملة الانتخابية، وقد تم طلب إيضاح ما يلي:

- هل محاكم المملكة تشمل محاكم الفلسطينية زمن الانتداب؟[١٤] وكانت نقطة الاستفسار في هذا البند هو كلمتا محاكم المملكة، بأنها مقصورة على المحاكم التي شكلت بالنسبة للضفة الغربية بعد أن أصبحت هذه الضفة تشكل جزءاً من المملكة الأردنية؟ إذ في هذه الحالة يقتصر على الأحكام التي صدرت بعد إدماج الضفتين فقط[١٥].
- هل المقصود من الرسوم والعوائد هي التي تشتمل على رسوم الرخص التي تتعلق بالعقارات مهما كان نوعها أو رسوم الحرف والصناعات؟
- هل يسري مفعول الحملة القائمة، وأن مدة إثني عشر شهراً هي مدة جمع الضرائب والرسوم؟[١٦]
- وهل يقصد بالمدة هي أن الدفع صار خلالها أو ضريبة التي استحقت على افتراض أن المدة المشار إليها هي المدة الموافقة إثني عشر شهراً السابقة، أم التي تم استحقاق دفع عن السنتين التاليتين ١٩٥٣م/١٩٥٤م؟
- هل الرسوم جهة ساكن تشمل الأولاد والأقارب من أصحاب الملك، أم تشير إلى من يسكن مستقلاً لا غير.
- هل ضريبة البلدية منفردة، أم ضريبة الحكومة منفردة، أو مجموع الضريبتين معاً.
- وإضافة إلى استفسار اللجنة الانتخابية عن تأجيل موعد عمل اللجنة وتسجيل الناخبين[١٧].

(١٤) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/٨، التصنيف ٨،بدون رقم وثيقة، ١٩٥٤.

(١٥) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٩/٢، اللجنة الانتخابية،١٩٥٤، ٢.

(١٦) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/٨، التصنيف ٨،بدون رقم وثيقة،١٩٥٤.

(١٧) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/٨، التصنيف ٨،بدون رقم وثيقة، ١٩٥٤.

- وبناء على الكتاب، فقد تم الرد عليه من قبل متصرف لواء نابلس بتاريخ ١٩٥٤/٧/٢٦م، وكان الرد عليه كما يلي:

- " بأنه لم يكن هنالك ما يستلزم إحالة الكتاب المشار إليه إلى ديوان تفسير القوانين لوضوح النصوص المتعلقة فيما يلي:

- محاكم المملكة لا تشمل محاكم فلسطين زمن الانتداب .

- ينبغي ان تكون الضرائب الحكومية، أو البلدية، قد استحقت على المكلف خلال مدة الإثني عشر شهراً السابقة، لتاريخ البدء في تنظيم سجل الناخبين، وهذا يشمل سنوات ١٩٥٣م/١٩٥٤م/١٩٥٥م الماليتين باعتبار ذلك التاريخ ١٩٥٤/٧/٢١م، ويجوز أن تكون الخمسمائة فلس المدفوعة بعضها عن سنة ٥٤/٥٣ والبعض الآخر ٥٥/٥٤، كما يجوز أن تكون بعضها ضرائب، والبعض الأخر رسوماً حكومية أو بلدية[١٨].

وكان الرد من قبل رئيس بلدية وأعضائها، على وزير الخارجية في الأردن، بأنهم نفوا جوابه بخصوص صلاحية المتصرف بتأجيل ميعاد مباشرة اللجنة أعمالها، كما أنه نفوا الرد بخصوص استفسارات اللجنة الانتخابية التي تم ذكرها، وبأنه لا يرى ضرورة إحالة استفسارات اللجنة إلى لجنة تفسير القوانين وأنه يرى[١٩]:

- أن محاكم المملكة لا تشمل محاكم فلسطين في زمن الانتداب.

- أن تكون الضرائب الحكومية، أو البلدية، قد استحقت على الوصف خلال مدة اثني عشر شهراً سابقاً مباشرة لتاريخ البدء بتنظيم سجل الناخبين وهذا يشمل سنتين ١٩٥٣م/١٩٥٤م الماليتين باعتبار ذلك التاريخ ١٩٥٤/٧/٢١م، ويجوز أن تكون الخمسمائة فلس مدفوعة بعضها عن ١٩٥٣م/١٩٥٤م والبعض الآخر عن١٩٥٤م/١٩٥٥م، كما يجوز أن تكون الضرائب، أو أن تكون رسوم حكومية أو رسوم بلدية[٢٠].

وبعد أن تم تبادل الكتب والمذكرات تقرر ما يلي:

- تقرر أن لا تشمل محاكم فلسطين أياً كان حاكمها في زمن الانتداب لا يمنع من قبوله ناخباً.

(١٨) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/١٨، التصنيف ٨، ١٩٥٤.

(١٩) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/١٨، التصنيف ٨، ١٩٥٤.

(٢٠) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/٨، التصنيف ٨، ١٩٥٤.

- وتقرر باتفاق لآراء اعتبار الناخب، هو كل من دفع ضريبة لا تقل عن خمسمائة فلس أي كان نوعها من الضرائب أو الرسوم سواء كانت حكومية أو بلدية ويستكفى بدفع اثنى عشر شهراً خلال فترة ٢١/ ٧/ ١٩٥٣م- ٢١/ ٧/ ١٩٥٤م.
- وتقرر تعيين كل من حسن الشرابي، وفايز البشتاوي لتحضير جداول الناخبين وفق القرار اللجنة الانتخابية، وتقديم الجداول بأسرع وقت ممكن [٢١]، بعد أن تم تعيين رئيس للجنة.
- وتعيين أعضائها[٢٢]، وإسناد للجنة إعداد جداول الناخبين، وأن تبدأ العمل في دار البلدية بتاريخ ١٩٥٥/٥/٢٨م.

الاشكاليات التي واجهة لجان تسجيل الناخبين

وبعد أن تم تبادل الكتب والمذكرات يبن الحكومة الأردنية، وبلدية نابلس، وتقرر تعين لجنة تسجيل الناخبين لمجلس بلدي، والمباشرة بأعمالها، وإسناد مهمة إعداد جداول الناخبين لتحضير للانتخابات، اتضح لي كباحثة، بعد الاطلاع على الوثائق، بأن الهدف من إيجاد مثل هذه الإجراءات هو جمع الضرائب والرسوم بأي طريقة كانت من المواطنين التي كانت تجمعها الحكومة، وتتصرف فيها بغض النظر عن ما تطلبه البلدية من نفقات لإتمام مشاريعها، والصرف عليها، وتأمين ما يحتاجه المواطن من خدمات، فما هذه الإجراءات إلا دليل واضح وقاطع على أن البلديات وجدت فقط للتحقيق مصلحة الحكومة، أو الجهة المتنفذة لتنفيذ سياساتها، ومصالحها من خلال وسيط (البلدية).

باشرت اللجنة تسجيل الناخبين، وتم إعداد جداول الناخبين للمجلس البلدي، وتم الاعلان عن أنه من يريد أن يقدم أي اعتراض على أسماء المنتخبين المدرجة في قائمة يحق له ذلك في دار البلدية، ويتم النظر في الاعتراضات المقدمة من قبل

(٢١) سجلات بلدية نابلس، نفسه، بدون رقم وثيقة.

(٢٢) وتم إصدار أمر بموجب مادة ١٠"٢" من قانون البلديات رقم ٢٩سنة ١٩٥٥ بتعيين رئيساً للانتخاب في منطقة البلدية نابلس وتعيين لجنة تسجيل الناخبين بناء على كتاب معالي وزير الداخلية على الوجه التالي:
- فؤاد طوقان محاسب المالية نابلس رئيساً .
- محمد العمد عضواً.
- عادل الشكعة عضواً.
- محمد العنبتاوي عضواً.
- عبد الرحيم التميمي عضواً .
- نبيه البيطار سكرتير المجلس البلدي كاتباً. سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٢٩/٨، التصنيف ٨،بدون رقم وثيقة، ١٩٥٤.

اللجنـة ويحـق لهـا أن تنظـر في الاعتـراض سـواء كان بحضـور المعتـرض، أو المعتـرض عليـه، أو في غيابهمـا، فإمـا أن يتـم النظـر فيـه أو رفضـه[٢٣].

وبموجـب ذلـك، يفـرض علـى مـن يقـوم بتقـديم اعتـراض كاذب أن يعاقـب بغرامـة لا تتجـاوز عشـرين دينـاراً، أو بالحبـس مـدة لا تتجـاوز ثلاثـة أشـهر، أو بكلتـا هاتـين العقوبتـين بمقتضـى المـادة "٣٨" مـن قانـون البلديـات[٢٤] .

ومن الإشكاليات الأخرى التي كانت تواجه لجنة تسجيل الناخبين :

- هـل يعتبـر إعـداد جـداول الناخبـين بصـورة نهائيـة عنـد نشـر الجـداول للاعتـراض، إلـى أن يبـت في الاعتراضـات وفي هـذه الحالـة كيـف يتسـنى للغيـر الإطـلاع علـى إضافـة أسـماء جـدد علـى الجـداول والاعتـراض عليهـا.

ومـن الأمثلـة علـى الاعتراضـات التـي تم تقديمهـا، وتم رفضهـا، مثـل الاعتـراض الـذي قدمـه عبـد الغنـي عيتشـاوي، الـذي قـدم بـأن المنتخـب عبـد الـرزاق المصـري لا يوجـد شـخص بهـذا الاسـم، فـكان قـرار اللجنـة، بشـأن مثـل هـذا الاعتـراض، الرفـض، ولكـن اتّضـح لـي، مـن خـلال الاطـلاع علـى الوثائـق فقـط، أنـه لا يمكـن رفـض الاعتـراض المقـدم، لأنـه كان هنالـك إشـكالية تواجـه اللجنـة في إعـداد جـداول الناخبـين بصـورة نهائيـة عنـد نشـرها، فلـم يتمكـن الجميـع مـن الاطـلاع علـى الأسـماء المضافـة فيمـا بعـد، فـلا بـد مـن أن يكـون هنالـك طريقـة عنـد نشـر هـذه الجـداول، حتـى يتسـنى للجميـع الاطـلاع عليهـا دون أن يكـون هنالـك إشـكاليات تـؤدي إلـى تقـديم مثـل هـذه الاعتراضـات، مـع العلـم أنهـا بقيـت لعـام ١٩٦٣م، وسـوف أوضـح ذلـك لاحقـاً[٢٥].

أمـا الإشـكالية الثانيـة، لمـا كان الوقـت الـذي يمكـن أن يتـم فيـه إعـداد جـداول الناخبـين بصـورة نهائيـة، غيـر معـروف، لـدى لجنـة تسـجيل الناخبـين، عنـد المباشـرة بعملهـا، فكيـف يمكـن تعيـين اليـوم الـذي تبـدأ فيـه مـدة الاثنـي عشـر شـهراً لتسـجيل أسـماء مـن دفعـوا الضرائـب خلالهـا[٢٦].

أنهـت لجنـة تسـجيل الناخبـين أعمالهـا، وبنـاءً علـى قانـون البلديـات، رقـم ٢٩ لسـنة ١٩٥٥م، تم تـرك اختيـار الأعضـاء إلـى لجنـة ثلاثيـة[٢٧] مسـئولة عـن اختيارهـم بعـد انقضـاء

(٢٣) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ١٧/١٠، التصنيف ٨،بدون رقم وثيقة ١٩٥٥.

(٢٤) سجلات بلدية نابلس، نفسه،بدون رقم وثيقة.

(٢٥) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ٥٩/١٥، التصنيف ٦/٨،بدون رقم وثيقة ١٩٥٥.

(٢٦) سجلات بلدية نابلس، نفسه، بدون رقم وثيقة.

(٢٧) اللجنة الثلاثية (فريد العنبتاوي، وماجد عبد الهادي، وابراهيم صنوبر)، سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، ارقام الملفات ٥٩/١٥، التصنيف ٦/٨،بدون رقم وثيقة،١٩٥٩.

مدة الترشيح لعضوية المجلس البلدي، وبما أنه لم يتقدم للترشيح سوى عشرة مرشحين، وهو العدد المطلوب، وهم عشرة أعضاء[٢٨] فازوا بعضوية المجلس بالتزكية[٢٩].

وفي عام ١٩٦٣م، باشرت لجنة تسجيل الناخبين أعمالها لمجلس بلدية المؤلفة من صبيح عبد الهادي رئيساً للجنة، وأعضاؤها هم: عبد الرحيم التميمي، وعادل إبراهيم غنيم أم غانم، وروحي الشخشير، وإبراهيم النابلسي، ومحمد الشويكه، حيث أنها عقدت جلسة بتاريخ ١٩٦٣/٦/٢٠م، حضرها رئيس اللجنة، وثلاثة من أعضائها (عبد الرحيم التميمي، وعادل إبراهيم غنيم، ومحمد الشويكه) وتغيب بقية الأعضاء بسبب وجودهم خارج نابلس، ولكن تقرر عقد هذه الجلسة لاكتمال النصاب القانوني حيث إن الحاضرين كانوا أكثرية الأعضاء، فتقرر فيها مباشرة لجنة أعمالها، وإعطاء أجر لكاتب اللجنة، وأن يكون هنالك متابعة أعمال لجنة أول بأول، وأن يكون الاطلاع على أعمال لجنة في الغرفة التجارية بنابلس[٣٠].

وفي هذه الفترة، كان هنالك إشكالية بأنه تم تعيين نائب الرئيس قبل تعيين الرئيس نفسه، فقد أشارت وثيقة موجهة إلى معالي وزير الداخلية تتضمن كيف يمكن أن يتم تعيين نائب الرئيس قبل أن يتم تعيين الرئيس نفسه[٣١].

فمن خلال النظر في قانون البلديات ١٩٥٥م، لم يكن هنالك مادة تجيز ذلك، بل كانت المادة "٢٥" توصي بأن انتخاب نائب الرئيس لا يكون إلا بعد تعيين الرئيس، ويتبين أنه كان هنالك تلاعب في الأصوات في الانتخابات، فوصول النائب قبل الرئيس يدلل على ذلك.

كما أنه كان هنالك مشكلة دفع الأجور للموظفين، الذين عملوا في انتخابات البلدية، فبعد أن تم النظر في الموضوع من قبل اللجنة، تقرر بجلسة منعقدة عدم إمكانية صرف مثل هذه الإكراميات، حيث تبين بعد الاستعلام من بعض البلديات الضفة الغربية أنها لم تدفع للموظفين الذين عملوا في الانتخابات مثل هذه الأجور، عدا الموظفين الذين حضروا جداول الانتخابات (كتبت لجان التسجيل)، هذا فضلاً عن أن المجلس البلدي يرى عدم وجود ميزانية مالية تستطيع دفع مثل هذه الأجور، وأن المجلس لا يريد أن يتخذ سابقة يعمل بها مستقبلاً[٣٢].

(٢٨) الاعضاء هم (أحمد السروري، وجودت تفاحة، وتحسين كمال، وحمدي كنعان، وضياء الخماش، وحسن مصباح النابلسي، شافع سعد الدين، عبد الكريم الطاهر، حسن حامي عبد الهادي، وصديق الاسمر)، سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، ارقام الملفات ٥٩/١٥، التصنيف ٦/٨،بدون رقم وثيقة،١٩٥٩.

(٢٩) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، ارقام الملفات ٥٩/١٥، التصنيف ٦/٨،بدون رقم وثيقة،١٩٥٩.

(٣٠) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، رقم الملف ١٩٦٣/١/١٥،التصنيف ٢/٨،بدون رقم وثيقة١٩٦٣.

(٣١) سجلات بلدية نابلس، انتخاب أعضاء المجلس البلدي، رقم الملف ١٩٦٤/١٥، التصنيف١٤/٨،بدون رقم وثيقة ١٩٦٤.

(٣٢) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات١٩٦٣/١٥، التصنيف ١١/٨،بدون رقم وثيقة ١٩٦٣.

الدعاية الانتخابية وموقف البلدية منها

وبعد أن تم الاطلاع على الإشكاليات، التي كانت تواجه اللجان، كان لابد من التطرق إلى الأساليب التي قام بها بعض المرشحين للانتخابات، لترويج نجاحهم في الانتخابات، وهو استخدامهم دعاية تحسين مشروع المياه.

فكان موقف البلدية، جراء هذا الأسلوب، أنها قامت بنشر بيان إلى المواطنين يوضح فيه تطورات قضية المياه وأن المجلس البلدي كان مهتماً بقضية المياه منذ أكثر من عشرين عاماً، فكانت من واجباته ومهماته منذ عام ١٩٥٩م مواصلة البحث، فكان هنالك تواصل بين المجلس البلدي والدوائر المسئولة، ومجلس الأعمار فكان أول أعمالها :

- إسناد العمل لشركة كندي ودونكن للقيام بدراسة المياه في نبع التبان ، الباذان، وقد بلغت تقديرات المشروع ٢٧٥ الف ديناراً .
- وأيضاً تم إسناد البحث بأمر المياه إلى سلطة المياه المركزية برئاسة دولة رئيس الوزراء، واختصت السلطة بأعمال مشاريع المياه[٣٣].

كما تمت الإشارة إلى أن تمويل أي مشروع مياه لا يتم إلا بقرض من مصادر مالية كبيرة، وبمعرفة الحكومة وعهدتها، فقد اعتمدت الحكومة البنك الدولي لتمويل المشروع، وهو لا يعطي القروض بناء على الطلب، ولا يكفي بدراسة طالب القرض، بل يعهد إلى شركة يعتمدها بمعرفته للقيام بدراسة أخرى كي يقتنع بسلامة المشروع من النواحي المالية ، وقد اعتمد البنك شركة (رفت اندرفتي) للقيام بالدراسة الثانية بالإضافة لدراسة شركة براون الاميركية[٣٤].

وتقرر بعدها الإعلان، من قبل رئيس اللجنة، بأن لجنة تسجيل الناخبين قد أنهت النظر في الاعتراضات المقدمة على جداول الناخبين، واتخذت القرارات المناسبة، وسمحت بتقديم الاعتراضات على هذه القرارات خلال يومي ٥-٦ من شهر آب سنة ١٩٦٣م، وبعدها يتم النظر في الاستئناف في محكمة بلدية نابلس لمدة أسبوع[٣٥].

وبدأ الاقتراع يوم السبت الموافق ٩/٢ وكانت نتيجة هذا الاقتراع ما يلي: فوز كل من (حمدي كنعان الذي تم تعيينه رئيساً، ومعزوز المصري نائباً[٣٦]، والآخرين أعضاء للمجلس البلدي وهم: جمال الخياط، وصديق الأسمر، وحسن عبد الهادي، وعادل

(٣٣) سجلات بلدية نابلس، انتخابات أعضاء المجلس البلدي، رقم الملف ١٩٦٣/١٥، التصنيف١١/٨، ١٩٦٣.

(٣٤) سجلات بلدية نابلس، نفسه، بدون رقم وثيقة.

(٣٥) سجلات بلدية نابلس، جداول الناخبين وانتخابات المجلس البلدي، التصنيف ١/٨، أرقام الملفات ١٧/١٠، ١٣٦٥، ١٩٦٣ ،١١.

(٣٦) فأجرى المجلس البلدي الجلسة الأولى المنعقدة بتاريخ ١٩٦٣/٩/١٦بالقرار رقم (١) عملية الاقتراع لانتخاب نائب للرئيس وقد نال الحاج

الشكعة، ووليد استيتيه، وفوزي قادري، ومحمد العمد، وحافظ طوقان)[٣٧]، وأضيف إليهم نصفت كمال، وحسن الخطيب، وكان ذلك من قبل وزير الداخلية الذي أعطاه القانون الصلاحية لتعيين آخرين[٣٨].

المؤامرات المحاكة حول شخص حمدي كنعان

لقد كان هنالك بيان صادر عن الهيئات الوطنية بطولكرم، بشأن المقال الذي نشرته جريدة الدفاع، تحت عنوان " زعماء الضفة الغربية وقعوا في المصيدة"، وتهجمت به على حمدي كنعان رئيس بلدية نابلس، وقد تم الاستنكار على هذا الهجوم ضده لأنه عرف بالشرف، والاستقامة، والنزاهة، وبحرصه، على وطنه، فقد كان من أبرز رجالات الضفة الغربية الذين وقعوا تحت وطأة الاحتلال الإسرائيلي، فهو لم يقم بأي عمل أو محاولة من جانبه للتفريط بنزاهته، وحرصه على مقاومة الاحتلال، وأكبر دليل على هذا هو مهاجمة الصحف الإسرائيلية لشخص حمدي كنعان ومهاجمته شخصياً في اجتماعات الكنيست الإسرائيلي، وهذا يبين مدى استهداف شخصية حمدي كنعان التي كانت دائما مستهدفه من قبل الصحفيين الإسرائيليين، وخاصة أن هجماته كانت ضد الإحتلال الإسرائيلي بشكل علني، وقد مثلت هذه الهجمات حال كل عربي في الضفة الغربية، فهو لم يجبن في يوم من الأيام بمناداة لإنهاء الاحتلال الإسرائيلي في الضفة الغربية بشتى الوسائل[٣٩].

كما أنه قاوم فكرة الكيان الفلسطيني الهزيل، ولم يكن داعياً أو راغباً فيه، كما ادعت جريدة الدفاع في المقال المنشور، فكان حمدي يمثل وجهة نظر جميع سكان المناطق المحتلة في الضفة الغربية الذين يرفضون كل عرض، ولا يقبلون إلا بالرجوع إلى وحدتنا المقدسة، مع توأمنا الضفة الشرقية، حسبما جاء في الميثاق الوطني الذي أجمعت عليه رجالات الضفة الغربية[٤٠].

هدفت الهيئات الوطنية من هذا البيان، الطلب من أجهزة الإعلام العربية، في كل مكان، التحقيق من كل موضوع قبل الخوض فيه، وخصوصاً أن عملية التشكيك في بعضهم بعضاً تساعد العدو على تنفيذ أغراضه، فهوا كثيراً ما يلجأ إلى مثل هذه

معزوز المصري خمسة أصوات ونال عادل الشكعة خمسة أصوات، ثم تنازل عادل الشكعة لمعزوز المصري، وبهذا قرر المجلس ان يكون الحاج معزوز نائباً لرئيس المجلس البلدي ، سجلات بلدية نابلس، انتخابات أعضاء المجلس البلدي،التصنيف٨/١١، أرقام الملفات ١٠/١٧، ١٩٦٣، ٧٤.

(٣٧) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، عملية لجان الفرز، التصنيف ٨، أرقام الملفات ١٨/٢٩، ١٩٦٣، ٣.

(٣٨) سجلات بلدية نابلس، انتخابات أعضاء المجلس البلدي، التصنيف٨/١١، ١٩٦٣، ٩٢.

(٣٩) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ١٠-١٧، التصنيف٨،بدون رقم وثيقة.

(٤٠) سجلات بلدية نابلس، نفسه، بدون رقم وثيقة.

العمليات للتشكيك في الكثير من الشخصيات في المناطق المحتلة محاولاً النيل منها، وتحطيمها لأنها صخرة صلبة في طريق تنفيذ مآربه.

وكان نتيجة هذا المقال والهجمات، التي كانت موجهة ضد شخصية حمدي كنعان، أنه قام بتقديم استقالته من رئاسة البلدية نابلس، فنتيجة هذا الموقف كان هنالك مجموعة من الكتب والمناشدات لشخص حمدي بالعدول عن قراره التي أظهرتها الوثائق، منها :

- لقد أظهرت وثيقة كانت موجهة من الاتحاد العام لنقابات العمال بالأردن/ فرع نابلس، مناشدةً لحمدي بالعدول عن قرار استقالته من رئاسة المجلس البلدي، والعودة إلى ممارسة أعماله، وذلك لما كان يتمتع به من الخبرة، والمعرفة، والتجربة العميقة، لخدمة هذا البلد(٤١).
- وأظهرت وثيقة أخرى كانت موجهة من الهيئات النسائية، في مدينة نابلس، تطالب حمدي بالعدول عن الاستقالة، والعودة إلى العمل البناء، فكانت تطالب بما يأتي :

١. وحدة التضامن والصمود يقضي بالعودة إلى العمل .

٢. البناء الفعال والحياة الأفضل، تحتم أعضاء المجلس التضامن مع جميع الهيئات النسائية، وطبقات المجتمع المختلفة، في المناشدة لعودة حمدي كنعان.

٣. الظروف العصيبة التي تتخطاها البلد تفرض عليكم العدول عن الاستقالة والعودة لتسلم الحكم لتنظر للناس بعين المساواة، وتسير في طريق الحق.

٤. جموع أهالي المعتقلات والمعتقلين وأهالي البلد يعتبرونك الأب والأخ العامل معهم في حفظ كرامتهم، وتأمين حياتهم(٤٢).

- كما انه تم رفع كتاب لجلالة الملك حسين /عمان من قبل نساء الضفة الغربية مع ممثلات عن الهيئات النسائية الذي كان ينص على :

" الحملة التي شنها حكام عمان، والتي وجهت إلى شخص حمدي كنعان، وكانت ضد من وقفوا ضد العدو، وبكل قوة، واظهروا من الوطنية والإخلاص ما جعلهم موقع الرضا والثناء فنالوا ثقة الجماهير"(٤٣).

(٤١) سجلات بلدية نابلس، استفتاءات المواطنين حول استقالة حمدي كنعان، أرقام الملفات ١٧/٨، التصنيف ٨،بدون رقم وثيقة ١٩٦٨.

(٤٢) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ١٠-١٧، التصنيف٨،بدون رقم وثيقة.

(٤٣) سجلات بلدية نابلس، نفسه، بدون رقم وثيقة.

- أيضاً ما قامت به وسائل الإعلام، ولا سيما الصحف، حيث أصبحت معبرة عن رأي فرد بدلاً من رأي أفراد مهما علا مركزه، وبهذا العمل سيكون وسيلة لفيضان أحقاد، وأنانية، ومصالح شخصية على حساب مصالح الشعب، وخاصة أن هذه الحملة كانت موجةً ضد أناس عرفوا بأنهم من أقوى أنصار وحدة الضفتين، ومنهم حمدي كنعان[٤٤].

من خلال هذه الحملات الصحفية، سوف تؤدي إلى هدم حدود الوحدة التي تم سعي من أجل تقويمها والحفاظ عليها، حتى لا تؤدي إلى تمزيق الوحدة الوطنية في وقت يجب الوقوف فيه جنباً إلى جنب لمساعدة الشعب من أجل الصمود في وجه الاحتلال ومواجهته، كما أن الهدف من إرسال كتاب إلى الملك حسين كان الطلب بوضع حد لمثل هذه الحملات الصحفية المدسوسة التي كانت موجهه ضد زعماء العرب[٤٥] .

ومما يجدر الإشارة إليه، أنه كان هنالك وثائق تحاول الكشف عمّن كان وراء هذا المقال، والدوافع من كتابته، والرد الذي رد به حمدي كنعان على هذا المقال.

أولاً: لقد بدأ حمدي كنعان بذكر الهدف الأول والأخير من هذا المقال هو شخص ضعيف، كان يقصد شخص حمدي، حيث لخص حمدي كنعان المآخذ التي زعم المقال إليها في ظل الظروف التي كانت يمر بها سكان الضفة الغربية، ومن هذه المآخذ[٤٦]:

١. أن حمدي كنعان تبنى مشروع الكيان الصهيوني.
٢. نظم لمقابلة مع سكرانتون المبعوث الشخصي للرئيس الأمريكي رتشارد نكسون.
٣. الاقتراح بإجراء انتخابات البلدية.

- ما يخص الكيان الفلسطيني ، ففي المقال الصادر تم اتهام حمدي كنعان بأنه قام بتأييد هذه الفكرة، ولكنه أكد أنه لم يتفوه بعبارة واحدة عن تأييد لمثل هذه الفكرة بل أنه هو كان أول من تبنى محاربتها منذ اليوم الثالث للاحتلال، عندما جاء ضباط الجيش الإسرائيلي يعرضان المشروع مستغلين ما بنفوس الناس من نقمة على الحكم السابق ولكنه رفض المشروع في الحال دون أخذ رأي أحد من المسئولين في المدينة، وبعدها بدأت الاجتماعات في

(٤٤) سجلات بلدية نابلس، نفسه، بدون رقم وثيقة.

(٤٥) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ١٠-١٧، التصنيف ٨، بدون رقم وثيقة.

(٤٦) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ١٨-٢٩،التصنيف ٨، رقم الملف ٦٩/١٥،بدون رقم وثيقة، ١٩٦٩.

المدينة بدعوى عدد من الوجهاء البلد أولاً في البلدية، وثانياً في بيت حمدي، وكان دائماً يحذر من خطورة هذه الفكرة(٤٧).

كما انه أوضح بأنه كان هنالك الكثير من اللقاءات الصحفية والمقابلات الشخصية بينه وبين مسؤولين أجانب، وكانت دائماً تتطرق لفكرة إقامة كيان فلسطيني، وكان يرفض ذلك، ويدعم رفضه بالحجج والبراهين(٤٨).

وكان أهم سندين لهذه الحقيقة:

أولاً: أنه فيما بعد نظم مذكرة وبمبادرة منه بتاريخ ١٩٦٨/٨/٢٦م، وقعها رؤساء بلديات الضفة الغربية ما عدا واحداً لم يتم ذكره، وكانت هذه المذكرة تتضمن التمسك بجلاء قوات الاحتلال، وأكد أن الضفة الغربية هي جزء من الأردن، وأرسل لجلالة الملك النسخة الأصلية من هذه المذكرة(٤٩).

أما السند الثاني فهو رفض قبول فتح الدوائر الإدارية بالضفة الغربية، رغم ما في فتحها من خدمة للجمهور، ولكن خشية أن يكون في هذه المبادرة خطوة نحو الحكم الذاتي(٥٠).

كان الهدف من هذا هو بيان أن حمدي كنعان لم يكن يؤيد فكرة إقامة كيان فلسطيني منفصل عن الأردن ودليل على أنه لم يثبت عليه أنه في يوم من الأيام صرح بإقامة كيان فلسطيني(٥١).

- وأما بخصوص الدعوة لمقابلة سكرا نتون المبعوث الشخصي للرئيس الامريكي، فقد كان هدفه من هذه المقابلة أن يقوم بإيضاح الوضع الفلسطيني له حتى يتم اطلاع الرأي العام الأميركي على أن الضفة الغربية يسكنها قوم مدركون لوجودهم، وليسوا مجرد مواشٍ تعتمد على رعاتها فكانت مطالب حمدي كالآتي:
  ١. المطالبة بالجزء المحتل من الضفة الغربية.
  ٢. الضفة الغربية جزء من المملكة الأردنية.
  ٣. يجب الأخذ بالرأي الفلسطيني عند وضع الحلول السلمية(٥٢).

(٤٧) سجلات بلدية نابلس، نفسه، بدون رقم وثيقة.

(٤٨) سجلات نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ١٨-٢٩،التصنيف ٨، رقم الملف ٦٩/١٥،بدون رقم وثيقة، بدون رقم وثيقة، ١٩٦٩.

(٤٩) سجلات نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ١٨-٢٩،التصنيف ٨، رقم الملف ٦٩/١٥، ١٩٦٩، ١.

(٥٠) سجلات بلدية نابلس، نفسه.

(٥١) سجلات بلدية نابلس، نفسه.

(٥٢) سجلات بلدية نابلس، نفسه، بدون رقم وثيقة.

كان هذا اللقاء الأول مع سكرا نتون المبعوث الشخصي للرئيس الامريكي، ولكن اللقاء الثاني، الذي تم في رام الله، لم يستطع حمدي حضوره ، فلذلك نشر كلمة في صحيفة القدس بيّن فيه سبب عدم حضوره، والسبب هو تأخر الاتصال الهاتفي مع نابلس، وعدم المعرفة بهذا الاجتماع، إلا قبل دقيقتين منه، وذكر في الصحيفة من وجهة نظره فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية بالأمور التي يجب إيصالها للمبعوث الامريكي(٥٣).

اقتراح بإجراء انتخابات البلدية، فقد ذكر في المقال أن حمدي يريد إجراء انتخابات بلدية في ظل وضع سياسي صعب، حيث كان الرد على هذا القول بأن إبداء الرأي، لم يكن اعتباطياً بل كان نتيجة لشكوى عامة في الضفة الغربية من وجود فراغ في التمثيل الشعبي الحقيقي، حيث إن الشعب يمر في مرحلة حاسمة مصيرية، ولطالما دعوا للانتخابات الشعبية حتى يترك للناس إختيار من يمثلهم(٥٤) .

١. بسبب رفع مذكرة لجلالة الملك تحمل تواقيع السادة:" حمدي كنعان، وليد القمحاوي، فدوى طوقان" وبهذه المذكرة تم ذكر حقائق عن قصور الحكومة في رعاية شؤون الضفة الغربية عامة، ونابلس خاصة، ولما تم عرض هذه المذكرة على رئيس الحكومة، جن جنونه، وحال دون وصولها للملك، ولكن كنعان أوصلها للملك بطريقته الخاصة، فكانت أول أسباب النقمة.

٢. قيام حمدي كنعان بزيارة لجلالة الملك، وحدثه عن الأثر السيء الذي يشعر به الناس من جراء فساد الحكم بالبلد، وما يعكسه علينا هذا الفساد في الضفة الغربية من أهل الضفتين، فرد الملك وقال إن الحكومة تضم أعضاء من أهل الضفة الغربية فرد كنعان، وقال أنه لا يستثني أحداً، فكان النقاش حاداً بينهم، فأبلغ الملك الوزارة بما جرى بينهم، ولعل رئيس الوزراء يتخيل أن إدعاءه بالناصرية تجعل من حكمه حكماً صالحاً.

٣. وبعدها ناقش كنعان الصورة الكاريكاتورية التي نشر، حيث قال أنه ليس فيها ما يحط من قدره برغم تشويه المعلق لمعانيها، بل هي تصور بصورة جلية الصبي الكبير الذي ألقته المقادير على كاهله من دون جميع المسئولين في الأراضي المحتلة.

(٥٣) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ١٨-٢٩،التصنيف ٨، رقم الملف ٦٩/١٥،بدون رقم وثيقة١٩٦٩.

(٥٤) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، أرقام الملفات ١٨-٢٩،التصنيف ٨، رقم الملف ٦٩/١٥،بدون رقم وثيقة، ١٩٦٩.

لقد كان موقف البلدية، من الإجراءات التي اتخذت بحق حمدي كنعان، بأن أعضاء البلدية قامت برفع كتاب استنكار لوزير الدفاع لحكومة إسرائيل بوساطة الحاكم العسكري بنابلس، والتي كان فحواها الاستنكار الشديد للإجراءات التي إتخذت ضد رئيس البلدية (حمدي كنعان) والتي تم اعتبارها موجهةً ضد المدينة وكرامتها والسلام[٥٥].

وفي نهاية المطاف، من وجهة نظر الباحثة، فإن الهدف من هذا المقال هو إيجاد الخلافات والمنازعات، وتشجيعها بين فئات المجتمع الفلسطيني، حتى يتسنى للاحتلال الإسرائيلي مد نفوذه وسيطرته على الشعب الفلسطيني وأرضه، وخاصة بعد فشل جميع المحاولات الخبيثة لتفتيت وحدته والقضاء على صموده على أرض فلسطين.

واستناداً إلى كتاب معالي وزير الداخلية للشؤون البلدية القروية بتاريخ ١٩٦٧/٥/١٨م، المتضمن تعيين رئيس إنتخابات في منطقة بلدية نابلس، عملاً بأحكام الفقرة الثانية من المادة العاشرة من قانون البلديات رقم ١٩٥٥/٢٩، وتم تعيين لجنة تسجيل الناخبين[٥٦]، وفيما بعد تقرر عدم إجراء إنتخابات بلدية، وأن تستمر مجالس البلدية القائمة في ممارسة أعمالها وفقاً للفقرة الثانية من المادة الثامنة من قانون البلديات رقم ١٩٥٥/٢٩٠وذلك حتى شعار أخر[٥٧].

(٥٥) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، ارقام الملفات ٢٩/١٨، التصنيف ٨، رقم الملف ١٩٦٧/١٥،بدون رقم وثيقة.

(٥٦) تم تعيين لجنة تسجيل الناخبين على الوجه التالي: صبيح عبد الهادي مدير مالية نابلس رئيساً/ محمد سعيد العالول عضواً/ جميل فريتح عضواً/ وحيد عمر المصري عضواً/سعدي عرفات عضواً/ نهاد كمال عضواً / عز الدين نمر عضواً /عادل ابراهيم غانم عضواً/عمر كمال كاتب البلدية كاتباً، سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، ارقام الملفات ١٨-٢٩،التصنيف ٨، رقم الملف ٦٧/١٥،بدون رقم وثيقة، ١٩٦٧.

(٥٧) سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، ارقام الملفات ١٨-٢٩،التصنيف ٨، رقم الملف ٦٧/١٥، بدون رقم وثيقة ١٩٦٧م.

الخاتمة

توصلت الدراسة إلى عدة نتائج منها:

- أن بلدية نابلس كان لها دور كبير في انعقاد مؤتمر رؤساء البلديات في الضفة الغربية، وذلك محاولة منها في إيجاد نوع من الاستقلالية من خلال إضافة التعديلات على قانون البلديات.
- تعديلات على القانون لم يكن لها دور في اطلاق يد البلديات في إتخاذ القرارات التي ترتئيها مناسبة، فما كانت إلا مساهمة في زيادة نفوذ الحكومة الأردنية، وتثبيت لها ولسياساتها، مثل القيام بجمع الضرائب والرسوم من المواطنين أياً كان نوعها، بدون الأخذ بعين الاعتبار ما تتطلب البلدية من نفقات ومصروفات تحتاجها، فكان هذا أسلوباً للتضييق عليها من أجل أن يكون الاعتماد الكامل على الحكومة في جميع قراراتها، ومثال على ذلك أنه كان للحكومة الأردنية الدور في تعيين لجنة تسجيل الناخبين، وإسناد تاريخ بدأ العمل في إعداد جداول الناخبين، وتحضير العملية الانتخابية لها.
- إن أساليب الدعاية الانتخابية، التي استخدمها بعض المرشحين في انتخابات المجلس البلدي، هو الترويج بشأن مشروع المياه، وأنه سوف يتم العمل فيه، ومتابعته، وتأمين احتياجات المواطنين من المياه، فكان موقف البلدية، من هذا التصرف أن قامت بنشر بيان للمواطنين توضح فيه تطورات قضية المياه، وأن المجلس البلدي مهتم بهذا الشأن، وأن تمويل مشروع المياه لا يتم إلا بقروض من مصادر مالية كبيرة، وبمعرفة الحكومة، وأن المجلس البلدي يتعاون مع الدوائر المسئولة، حيث تم إسناد هذا المشروع إلى البنك الدولي لتمويل المشاريع.
- تميزت بلدية نابلس بتعاقب عدد من الرؤساء الذين تولوا مهام البلدية، حيث وصل بعضهم عن طريق التعيين، والبعض الآخر عن طريق الانتخاب، وكان ذلك على أساس الوضع القائم للبلاد، وبالرغم من ذلك نستطيع الإشارة إلى أنه أصبح هنالك نوع من الوعي لدى المواطن في معرفة حقه في تعيين من يقوده ، أي أنه يدرك أهمية إجراء انتخابات، وأن يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب، لكي يستطيع تأمين الخدمات والاحتياجات الأساسية للمواطنين والوطن.

- وصل حمدي كنعان في فترة رئاسته الأولى من عام ١٩٦٣م-١٩٦٧م، عن طريق الانتخاب، وأكمل فترة رئاسته من عام ١٩٦٧م-١٩٦٩م، عن طريق التعيين، وكان ذلك بسبب الأجواء المتوترة، ووقوع نكسة عام ١٩٦٧م، ومد نفوذ الاحتلال الإسرائيلي وسيطرته على الأراضي الفلسطينية، وتشريد السكان، فتقرر إجراء انتخابات المجلس البلدي وتم تحضير اللجان، ولكن في النهاية تقرر إلغاؤها فاستمر حمدي كنعان في الرئاسة .

قائمة المصادر والمراجع

سجلات بلدية نابلس

١. سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، ارقام الملفات ٩/٢، اللجنة الانتخابية،١٩٥٤م.

٢. سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، ارقام الملفات ٢٩/١٨، التصنيف ٨، ١٩٥٤/٤/٤م.

٣. سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، ارقام الملفات ١٧/١٠، التصنيف ٨، ١٩٥٥م.

٤. سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، ارقام الملفات ٥٩/١٥، التصنيف ٦/٨، ١٩٥٥م.

٥. سجلات بلدية نابلس، عملية فرز الجان، ارقام الملفات٢٩/١٨، التصنيف٨، ١٩٦٣م.

٦. سجلات بلدية نابلس، اعترض على انتخابات المجلس البلدي، رقم الملف ١٩٦٣/١/١٥م، التصنيف ٢/٨،

٧. سجلات بلدية نابلس، عملية فرز الجان، ارقام الملفات٢٩/١٨، التصنيف٨، ١٩٦٣م.

٨. سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، ارقام الملفات١٩٦٣/١٥، التصنيف ١١/٨، ١٩٦٣م.

٩. سجلات بلدية نابلس، جداول الناخبين وانتخابات المجلس البلدي، التصنيف ١/٨، ارقام الملفات ١٧/١٠، ١٣٦٥، ١٩٦٣م.

١٠. سجلات بلدية نابلس، انتخابات اعضاء المجلس البلدي، التصنيف١١/٨، ارقام الملفات ١٧/١٠، ١٩٦٣م.

١١. سجلات بلدية نابلس، انتخابات اعضاء المجلس البلدي، التصنيف١١/٨، ١٩٦٣م.

١٢. سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، ارقام الملفات ٢٩/١٨، التصنيف ٨، رقم الملف ١٩٦٧/١٥م.

١٣.سجلات بلدية نابلس، استفتاءات المواطنين حول استقالة حمدي كنعان، ارقام الملفات ١٧/٨، التصنيف ٨، ١٩٦٨م.

١٤.سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، ارقام الملفات ١٨-٢٩، التصنيف ٨، رقم الملف ٦٩/١٥، ١٩٦٩م.

الرسائل الجامعية

مقبل، رائد، اثر انتخابات الهيئة المحلية الفلسطينية في تفعيل المشاركة السياسية ٢٠٠٤م-٢٠٠٩م، (فلسطين، جامعة النجاح، ٢٠١٠م).

الدوريات (المجلات)

الجرباوي، دور البلديات في فلسطين-الدولة، مجلة الدراسات الفلسطينية، المجلد ٣، العدد٩، ١٩٩٢م.

الملاحق

١. سجلات بلدية نابلس، انتخابات المجلس البلدي، ارقام الملفات ٢٩/٨، التصنيف ٨، بدون رقم وثيقة، ١٩٥٤.

٢. سجلات بلدية نابلس، اعتراض على جداول الناخبين، ارقام الملفات٦٣/١٥، التصنيف ٨، ١٩٦٣.

رؤساء بلدية نابلس منذ التأسيس وحتى الوقت الحاضر

الشيخ محمد تفاحة الحسيني	١٨٦٩-١٨٧٢
حسن عبد الهادي	١٨٧٣-١٨٧٤
د. أحمد حلمي	١٨٧٤-١٨٧٦
حسن عبد الهادي	١٨٧٩-١٨٨٥
شريف طوقان	١٨٨٦-١٨٨٧
عبد اللطيف عبد الهادي	١٨٨٧-١٨٩٤
بشير طوقان	١٨٩٤-١٨٩٦
بدوي عاشور	١٨٩٦-١٨٩٧
عبد اللطيف عبد الهادي	١٨٩٧-١٩٠٠
بشير طوقان	١٩٠١-١٩٠٢
توفيق حماد	١٩٠٢-١٩٠٦
محمد عبده	١٩٠٧-١٩٠٨
عبد اللطيف عبد الهادي	١٩٠٨-١٩١٠
حيدر طوقان	١٩١١-١٩١٢
كمال الدين عرفات	١٩١٢-١٩١٣
يوسف التميمي	١٩١٣-١٩١٣
حسن حماد	١٩١٣-١٩١٥
بشير الشرابي	١٩١٥-١٩١٥
كمال الدين عرفات	١٩١٥-١٩١٦
أحمد مختار	١٩١٦-١٩١٧
يوسف التميمي	١٩١٧-١٩١٧
حيدر طوقان	١٩١٧-١٩١٧
عمر زعيتر	١٩١٧-١٩١٨

نمر حماد	١٩١٨-١٩١٨
سليمان الصمادي	١٩١٨-١٩١٨
حيدر طوقان	١٩١٨-١٩١٨
عمر زعيتر	١٩٢٤-١٩١٨
عمر الجوهري	١٩٢٥-١٩٢٤
سليمان طوقان	١٩٥١-١٩٢٥
أحمد الشكعة	١٩٥١-١٩٥١
نعيم عبد الهادي	١٩٥٥-١٩٥١
معزوز المصري	١٩٥٧-١٩٥٥
اللواء بهجت طبارة	١٩٥٩ -١٩٥٧
د. أحمد سروري	١٩٦٣-١٩٥٩
حمدي كنعان	١٩٦٩-١٩٦٣
معزوز المصري	١٩٧٦-١٩٦٩
بسام الشكعة	١٩٨٢-١٩٧٦
السلطة المعينة	١٩٨٥-١٩٨٢
ظافر المصري	١٩٨٦-١٩٨٥
حافظ طوقان	١٩٨٨-١٩٨٦
ادارة ذاتية من مدير البلدية ورؤساء الاقسام	١٩٩٤-١٩٨٨
غسان الشكعة	٢٠٠٤-١٩٩٤
لجنة الحكم المحلي برئاسة د. حسين الأعرج	٢٠٠٥-٢٠٠٤
لجنة الحكم المحلي برئاسة السيد غسان الهموز	٢٠٠٥-٢٠٠٥
م.عدلي يعيش	٢٠١٢-٢٠٠٥
غسان الشكعة	٢٠١٥-٢٠١٢
لجنة الحكم المحلي برئاسة سميح طبيلة	٢٠١٧-٢٠١٥
عدلي يعيش	٢٠١٧ - حتى الآن

الشيخ محمد تفاحة
1872-1869

بشير طوقان

توفيق حماد

حيدر طوقان

كمال الدين عرفات

حسن حماد



عمر زعيتر



عمر الجوهري





سليمان طوقان
1951-1925



أحمد الشكعه
1051-1951



نعيم عبد الهادي
1955-1951



معزوز المصري



بهجت طبارة



د. أحمد سروري
1963-1959

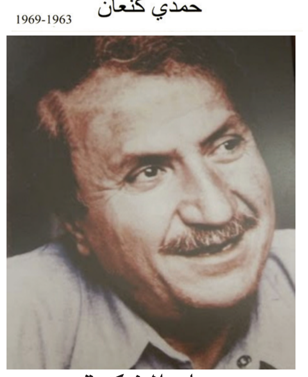
حمدي كنعان
1969-1963



ظافر المصري



حافظ طوقان
1988-1986



بسام الشكعة



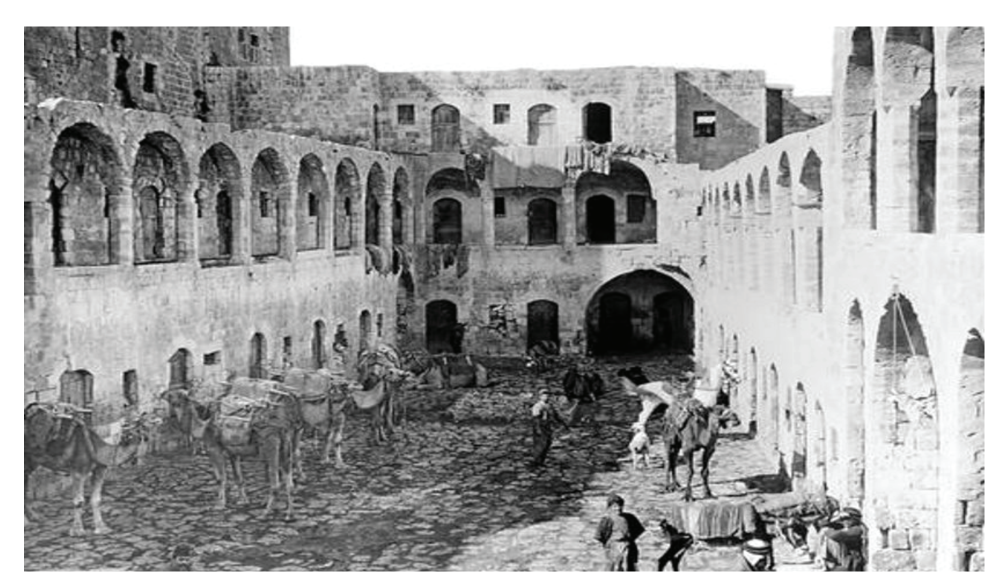
غسان الشكعة
2004-1994



سميح طبيلة



عدلي يعيش





خان الوكالة - قديما وحديثا





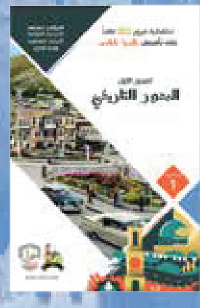
مقبرة شهداء الجيش العراقي – نابلس



نابلس تروي تاريخها







سلسلة رقم
1

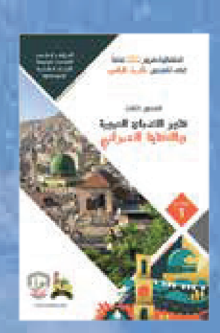


بلدية نابلس 1869 2019

150 عاماً من العطاء







نابلس - فلسطين
نيسان 2019